مظاهر الرثاء في الشعر العربي في العصر العثماني

د. زينب بيره جكلي
أستاذة الأدب المساعدة في جامعة الشارقة
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

الخلاصة

الرثاء فن يعبر به الشعراء عن عواطفهم تجاه من فقدوه من أهل أو بلد أو مجد، وله أنواع كثيرة منها الرثاء الرسمي ورثاء النفس والأهل ورثاء العلماء والأصدقاء، وهناك رثاء المدن المنكوبة ورثاء الملك الضائع والرثاء الساخر و ...

ويمتاز مضمونا بأنه فن يستهل عادة بالتعبير عن الأحزان، ويؤبن المرثي، وقد يصدر الشاعر حِكَما عن الموت والحياة، ويذم الدنيا ويتأسى بمن سبقه إلى الدار الآخرة .

وللرثاء مظاهر متعددة إذ تكشف عن أوضاع البلاد اجتماعيا وسياسيا، كالحديث عن مكانة المرأة وأهمية الفتوحات، وأخطار النكبات التي تحل بالبلاد، وهناك رثاء ساخر هدفه المتعة .

أما الرثاء فنا فقد بدا في منهج القصيدة المتماسك البنية، وقد تستهل المرثية بالحديث الرمزي عن أطلال المتوفى، وقد يمزج بها تهنئة. وتختم بالدعاء للميت، أو بالصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم .

وتوفرت في المراثي الوحدة العضوية، أما المقطعات الرثائية فكثر فيها التأريخ الشعري، وجاءت صورها مكثفة . وهناك معارضات رثائية واحتذاء فني .

وقد جدد شعراء المراثي بعرض موضوعهم في مطارحات خيالية أو بالحديث عن مكانة الشاعر في عالم البرزخ. وفي المراثي مشاهد واقعية وتصوير فني بديع .

وإذا كانت المراثي من الشعر الوقور فإن بعض الشعراء نظمها على أبحر قصيرة، وفي موشحات ومسمطات رباعية أو خماسية... وهذا يشير إلى تغير الذوق الفني في ذلك العصر .

ABSTRACT

The elegy is an art form used by poets to express sad emotions and lamentations for the deceased. This kind of poetry could also involve in its content a judgment about the world of death and life. As a matter of fact, however, this kind of poetry in the Othmani period had, in addition to its traditional aspects, many additional characteristics in its poetic form and content. It dealt with issues such as policy, political crimes, internal revolutions and external conquests, the fall of cities and the overthrow of monarchies.

Socially, poetic elegies also expressed the setbacks and sufferings in society of that time having to do with the value of knowledge, the vital role of women and the condemning of corruption. At the religious or doctrinal level, poetic elegies during the Othmani period expressed the sad feelings of people toward the natural disasters that were badly affecting Islamic sacred places. They also condemned those who deviated from Islam and clarified the relations between Muslims and non-Muslims. While literally such elegies appeared to express sadness, in reality they expressed a kind of enjoyment and entertainment.

From the literary point of view, this type of poetry reflected a change in the writing of the poems, which generally started with facts or ruins as a symbol. They represent poetic history and a language that includes juxtapositions and implications. The literary images of elegy poets include imaginative scenes between the poet and plants or images of illusions, which refer to the world of the hereafter.

Some elegy poets resorted to short and divided poetic forms and some to other musical elements, which contributed a great deal to explaining meanings. These musical types varied from quatrain poems to five and seven-line stanzas.

تقديم :

لازالت الدراسات العربية عن الشعر العربي في العهد العثماني قليلة بل نادرة، وهي مكبلة بمفاهيم سابقة تصد الناس عنها كاتهام الشعر بالانحطاط، ولذلك كان لابد من الكشف عن هذا الشعر الذي يحوي في طياته دلالات ومظاهر مضمونية وأسلوبية كثيرة لنعرِّف الأجيال على هذه الآداب التي هي جزء من مسيرتنا الأدبية في عصر امتد ما ينيف عن أربعة قرون .

ونظرا لقلة الدراسات حول هذا العصر فقد رغبت أن يشمل البحث فن الرثاء في الشعر العربي كله في ذلك العصر، لأنه من أكثر الفنون تعبيرا عن وجدان الفرد والأمة، ولأن ماوجد من أنواع وقضايا فنية قد لاتتوفر في معطيات منطقة واحدة .

وكان منهجي في الدراسة هو استقراء النصوص لتبيان أنواع هذا الفن في العصر، ووصف ما فيها من ظواهر، ثم تبيان القضايا الفنية اعتمادا على المنهج الفني :

وسأوضح أنواع الرثاء ثم ظواهره المضمونية والأسلوبية .

أولا: أنواع الرثاء :

وهي متعددة :

1- رثاء الأشخاص: من سلاطين وخلفاء وأبطال وأهل وأصدقاء، بل حتى النفس يرثيها صاحبها وهي تقدم على عتبات الموت .

أ- الرثاء الرسمي :

وفيه يبكي الشعراء السلاطين والخلفاء ويذكرون فعالهم الحميدة في نشر الإسلام في ربوع الأرض، وكأنهم غدوا لسان الأمة الناطق وضميرها الحي، فالسلطان سليمان القانوني( ) كان خليفة مجاهدا في سبيل الله، وقد خضع له الملوك وفتح البلدان ثم سقط في إحدى المعارك شهيدا فبكاه الشعراء وذكروا نشره للإسلام وعدله في سياسته، من ذلك قول أبي السعود أفندي.( )

أصـوتُ صـاعقةٍ أم نفخةُ الصور
فالأرضُ قد مِلِئتْ من نَقْرِ ناقور

أم ذاك نعـيُ سليمانَ الزمان ومَن
مضت أوامـرُه في كل قيْهور

تاهت عقولُ الورى من هول وحشتِه
فأصبحوا مثلَ مخمورٍ ومسكـور

حقـا ومن ملأ الدنيـا مهابتُه
وسخَّـرت كلَّ جبـارٍ وقيهور( )

مجـاهدٌ في سبيـل الله مجتهد
مؤيـد من جنان القدس منصور

لـه وقائـعُ في الأعداء شائعةٌ
أخبـارُها زُبِرَتْ في كل مسطور( )

ويمتزج هذا النوع عادة بالتهنئة لمن تسنم المنصب الجديد، ففي القصيدة نفسها نرى الشاعر يقول عن ابنه السلطان سليم الذي خلفه :

ألا ترى ملكَه المحميَّ آلَ إلى

سرٍّ سَرِيٍّ له في الدهر مشهورِ

وليٍّ سلطنـةِ الآفاق مالكِهـا
برا وبحرا بعين اللطفِ منصور

لازال أحكامُه بالعـدل جارية
بيـن البريةِ حتى نفخةِ الصُّور

والصفات في هذه المراثي لاتكاد تختلف عنها في المديح، فالسلطان هو الآمر الناهي، الحاكم المهيب، المجاهد العادل، واسع المملكة، الذي خضع له الجبابرة، وهذه السمات مما يناسب مقام السيادة والمسؤولية

ب- رثاء النفس :

وفيه يدرك الشاعر أن حياته الدنيوية قد انقطعت أو كادت، وأن الناس سيسيرون بعد مواراة جثمانه سيرتهم الأولى، فالشاعر حسن بن الأعوج( ) يقول وهو على فراش الموت :

لايحسب الإنسانُ بعـدَ ذهابـه
مكثَ الأسى في عِشرةٍ وقرين

في الحال يعتاضون عنه بغيره
ويعود ربُّ الحزن غيرَ حزين( )

وقد يتأسى المحتضر بالأمم السالفة، ويطلب من الآخرين أن يتلوا على قبره من آيات الله سبحانه عل وحشة القبر تتحول إلى نعيم، وهذا ما عبر عنه الشاعر حسن بدري الحجازي( ) عندما دهمته مصيبة الموت، وكأنه أحس بالضيق الشديد من هول الموقف إحساسا عبر عنه بتشديد روي قصيدته وذلك بقوله :

أيها الآتي ضريحـي
قفْ على قبري شويّ

واقـرأِ القرآنَ عندي
ينـزلُ الروحَ عليّ

لاتغـرَّنْكَ حيـاةٌ
إنمـا الدنيـا كفَـيّ

أين فرعـونُ وعادٌ
أين نمـرودُ العتِيّ

يامغيـثا مستغيثا
حيـن يغشاه الغَشيّ

للحجازيْ حَسَن هبْ
حُسْنَ خَتْم منك حيّ

وازْوِ عنه نُكْرَ قبر
ثم حشْرٍ أيَّ زَيّ( )

ج- مراثي الأهل :

وفي هذا النوع تبدو العواطف الدفاقة الشجية، ولاسيما إن كان المرثي ابنا أو أما ...

فالشاعر العشري( ) في رثائه لأمه يذكر الفجيعة وهو لايكاد يصبر، وتتكاثف الهموم عليه ويحس أنه لن يستطيع أن يؤدي حقها مهما فعل، يقول في ذلك :

تنوب خطوبُ الدهرِ وهي فجيعةٌ
وليس لفقد الأم صبرٌ ولا جلدْ

عشية واراها الترابُ تكاثفتْ
عليَّ الرزايا الهمُّ والحزنُ والفقد

ومن بعدها إن نابني الدهرُ نوبة
أبيتُ سهيرَ العين أو ضمَّني بُعْدُ

فلست أؤدي عشْرَ مِعْشارِ حقِّها
عليَّ لها من بعدِ مولى الورى الحمد( )

د- مراثي العلماء والأصدقاء :

والعالم كالأب، والصديق الحميم أخ لم تلده الأم، ولهذا يتألم المرء لفقد أحدهما، ولا سيما إن كان الخليل عالما من العلماء المخلصين .

هذا الشاعر التافلاني( ) يذكر في رثائه لأحد علماء القدس حزن الناس الذين كانوا يستمعون إلى نصائحه ومواعظه وهو يذكرهم فيحيي قلوبهم، كما يذكر له فتاواه الهامة فيقول :

لفقدك بدرَ الدين تشكو المنابرُ
ويندبُك الأقصى وتبكي المحابرُ

إذا ما تلوت الذكرَ في ملأِ الورى
تيقَّظ ذو سمع إليك وسامر

ومتَّعْتَ بالفُتيا زمانا وعشتَ في
رياض التقى وهي الرياضُ النواضر( )

وينعى الأمير الصنعاني( ) في مرثية له عالم اليمن فيذكر دروسه وكتبه، وما أعد الله له من نعيم مقيم ينسى به لأواء الحياة ومعاناتها فيقول :

يا ناعيا عالمَ الدنيا وفاضلَها
تأنَّ حسبك قد أوهاني النصب

من للمدارس والتدريس بعدك بل
من للمحاريبِ في الأسحار يُنْتَدب

من للعلومِ علومِ الآلِ ينشرُها
من بعد طَيِّك هذا الحادثُ الكَئِب

طوبى لقبرك ماذا ضمَّ من كرم
ومن علومٍ ومن زهد هو العجب

وافيتَ ربَّك في أثوابِ طاعتِه
يُهنيك أنك بالرضوان تنقلبُ

يلقاك رَوْحٌ ورَيْحان ومغفرة هذا

النعيم الذي يُنسى به التعبُ( )

-2رثاء المدن المنكوبة

ورثاء المدن ليس كفقد الأفراد، إنه مصيبة جلى تحل بالأمة، ولها وقعها الأليم الممض، ولا سيما إن كانت النكبة تتعلق بالديار المقدسة. وكان بعض هذه النكبات من جراء عوامل طبيعية جغرافية، وبعضها الآخر سياسية المصدر . فالشاعر إبراهيم المهتار( ) يكاد قلبه يتفطر لتصدع بيت الله الحرام، وتهدم بنيانه بسيل حراء الذي وصل مكة المكرمة عام 1039هـ وخرب أركانه، وقد سجل هذا الحدث المحزن في قصيدته "در النظم في وقوع بيت الله المعظم" ومما جاء فيها :

ماجتْ قواعدُ بيتِ اللهِ واضطربتْ
واهتزتِ الأرضُ من أقطِارها وربَتْ

وأمستِ الكعبـةُ الغراء واقعة
فما أشـك أن الساعـة اقتربتْ

فأي عينٍ على ما كان ما انسكبَت ؟
وأي روحٍ لما قد صار ما وصِبَت ؟

لهْفي على تلكمُ الآثارُ كيف عفت
وكيف شادت ربوعُ الحزن إذ خربت

لهفي على تلكمُ الأطفالُ كيف قضت
وكيف جُدَّتْ حبالُ الصبرِ واقتُضِبَتْ

فكم بأكنافِهـا من مهجةٍ ذهبتْ
وكم جُنوبٍ على ساحاتِها وجبَت

وكم بذلـك من ذكـرى ومعتَبَر
لمن تذكـر لكن النُّهى غَرَبت

يا خالقَ الخلقِ عفوا عن جرائمِنا
فخوفُ أنفسِنا مما قد ارتكبت( )

وهناك نكبات طبيعية كالزلازل تتعرض لها الشعوب، ويحكي لنا الشاعرمحمد المطلبي( ) في خمسة وخمسين مقطوعة من المخمسات عن زلزال قوي ضرب مناطق جنوبي تركيا وشمالي سوريا، وكان ذلك في 1237هـ، إذ هدم من جنوبي تركيا مرورا بحلب حتى جسر الشغور( ) وما يجاور هذه المناطق، وقتل تحت الردم نحو عشرين ألفا، وكانت مصيبة كبرى في الأشهر الحرم تواصلت فيها الرجفات حتى ظن الأهالي أنهم على ظهر سفينة في بحر هائج، وسقطت لذلك دور كثيرة، وقد وصف الشاعر الدمار والخراب بذهول وحزن، وعلل سبب ما حل بالناس بكثرة ذنوبهم وفسادهم الذي استدعى تأديب الله سبحانه لهم ليفيئوا إليه، يقول في ذلك :

وانظر إلى حلبٍ واها على حلبٍ
أفناهم الدهرُ بالزلزال والعطبِ

تبكي عليهم بنو الأتراك والعُرب
أسفا عليهم ذوي الغاياتِ والرتب

سقاهم من كؤوس الموتِ ساقيها

كم من شبابٍ وغادات بها فَنِيَتْ
وكم من عيون عليها بالبكا عمِيَتْ

وكم ديارٍ لها من أهلها خلِيت
وكم جسومٍ لهم في أرضِها بليت

أضحى عبيدُهم تبكي مواليها

كم من ديار وخانات بها هُدمت
وكم مساجدَ للعُبَّاد قد عدمت

وكم موادنَ في حيطانها صُدِمَتْ
وكم نفوس على ما فاتَها ندمَت

راحوا ضياعا ولم تكفُل ذراريها

وأمةُ الخيرِ بالقرآن هذَّبَها
لولا المعاصي فشتْ ما كان عذَّبها

لعلها جحدت حكما فكذبها
وبالزلازل والهزات أدبها

حتى تفيءَ لأمر اللهِ مُهديها( )

فالشاعر عبر عن أحزانه لهلاك الشباب والنساء وكثرة اليتامى الذين لم يجدوا من يكفلهم في هذه الظروف العسرة، كما تحدث عن تدمير موارد الرزق وأماكن العبادة وعزا ذلك إلى كثرة الذنوب وانتشار الفساد في المجتمع .
ولما قضت الدولة العثمانية على الحركة الوهابية في عهد السلطان محمود الثاني( ) وسقطت مدينة الدرعية معقلها بكاها الشاعر أحمد بن علي بن مشرف( ) وذكر سفك الدماء وانتشار الفساد بعد أن كانت هذه المدينة تسطع فيها أنوار الهداية، فقال :
أليلٌ غشى الدنيا أم الأفقُ مُسْوَدُّ
أم الفتنةُ الظلماءُ قد أقبلَت تعدو

نعم كُوِّرَتْ شمسُ الهدى وبدا الردى
وضُعضِعَ ركنٌ للهدى فهو منهَدُّ

فلما مضت تلك العصابةُ لم يقم
بعدلهم من ضمه الشام والسند

فكم فتنةٍ عمَّت وكم طُلَّ من دم
حرامٍ، وكم ضلت عصايبُ وارتدوا( )

ولما سقطت أدرنة وكانت معقلا هاما للدولة العثمانية في قسمها الأوربي رثاها الشعراء بدموع حرى، وشبهوها بالأندلس، وذكروا انتهاك حرماتها على أيدي البلغار، وشكوى قبورها ومساجدها من فتكهم، يقول أمين ناصر الدين :( )
وقفْتُ بفكري في أدرنة وقفةً
وبي من شجونٍ مثلُ ما ووري الزند

تذكرني آثارُها زمنـا خلا
وللتُّرك ظلٌّ في البسيطـة ممتَد

وعرشٌ رفيعٌ تطلعُ الشمسُ دونه
وملكٌ عظيم ما لصاحبـه ند

فلا كان يوم فيه أضحتْ أدرنةٌ
ومن هبَوات الحربِ آفاقها ربد

يطـوف بنو البلغار في جنَباتِها
ويدخلُهـا وفدٌ ويبرحُها وفد

تكاد قبورُ الفاتحين لما جرى
تَصَدَّعُ حزنا والمعاقلُ تنهدُّ

مآذنُها قامتْ كأيدي جماعةٍ
إلى الله تشكو بعضَ ما صنع العبد( )

-3رثاء الملك الضائع

ولما انهارعرش السلطان عبد الحميد الثاني( ) بكاه كثير من الشعراء، وكان أحمد شوقي في مقدمة هؤلاء، إذ صوره أسدا هصورا أنشب أسد مخالبه فيه فأودى بملكه، يقول فيه :

شيخُ الملـوكِ وإنْ تضَعْـ
ـضَعَ في الـفؤادِ وفي الضميرْ

ونراه عند مصابـه
أولى ببـاكٍ أو عذيرْ

ونصونُـه ونجلُّـه
بين الشماتةِ والنكـير

عبدَ الحميد حسابُ مثـ
ـلِك في يدِ الملكِ الغفور

سدْتَ الـثلاثين الطوا
لَ ولسْنَ بالحكمِ القصير

ماذا دهـاكَ من الأمو
رِ وكنـتَ داهيةَ الأمور؟

أسدٌ هصورٌ أنشبَ الـ
أظفارَ في أسدٍ هصور( )

وشبيه بهذا الموقف بكاء "أحمد شوقي" الخلافـة الإسلامية لما قضى عليها مصطفى كمال أتاتورك( ) وجعل تركيا دولة علمانية، وصادر أموال بني عثمان، ونفى الخليفة إلى سويسرا، فقال الشاعر مخاطبا الخلافة، رمز الإسلام الضائع التي كانت توحد المسلمين فغدت اليوم متناثرة، إن سقوطها سوف يؤدي إلى كثرة الذين يدعون السلطة كما

ادعى مسيلمة الكذاب وسجاح إثر وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولسوف تكثر الفتن ويتساهل الناس بأمر الدين، يقول :

يالـلرجال لحـرةٍ موْءُودَةٍ
قُتِلَتْ بغير جَريرةٍ وجُناح

وعلاقةٍ فُصِمتْ عُرى أسبابها
كانت أبرَّ علائِق الأرواح

نظمتْ صفوفَ المسلمين وخطوَهم
في كل غدوةِ جمعةٍ ورَواح

بكتِ الصلاةُ وتلك فتنةُ عابثٍ
بالشرع عِرْبيدِ القضاءِ وَقاح

فلَتَسمعُنَّ بكل أرضٍ داعيا
يدعو إلى (الكذابِ) أو (لسجاح(

ولَتَشهدُنَّ بكل أرضٍ فتنةٍ
فيها يباع الدينُ بيعَ سَماح( )

-4رثاء ساخر
هو نوع من الترويح عن النفس بأسلوب ظاهره الحزن، وحقيقته الفكاهة والظرف، كأن ينعى شاعر ضرسا قلعه أو عمامة سرقت منه أو حيوانا فقده، وهذا اللون من الشعر يقوم على فلسفة الترويح عن النفس من عناء الجد لأن الحياة ليست كلها جدا خالصا، وقد مزح الرسول صلى الله عليه وسلم مع عجوز، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه روحوا القلوب ساعة وساعة .
وقد يأتي للتنديد بعادة اجتماعية سيئة كالسرقة أو لوصف حالة بؤس أو مرض، أو للطعن بصداقة مزعومة، أو لمداعبة صديق ...
فالشاعر مصطفى البابي الحلبي( ) يرثي ضرسا له ويجعله صاحبا صديقا كان يعوله في حياته، ثم ثل عرشه بعد أن حلت به نازلة أضعفت قوته، فاستحق أن يرثى لتفريق الشمل بينه وبينه، يقول :

أيُّ طـود من الرواسي العظامِ
فجَعتْنا بـه يدُ الأنـام

صاحبٌ كان لي وفيّا وبي برّ
اً حفيّـا يعولُني بالتِـزام

وخليلا في كل مَخْمَصةٍ كا
ن عنـد الإطعامِ والإنعام

ضعضعَتْ ركنَه الخطوبُ وثَلَّتْ
عرشَ سلطانِه المنيع السامي

رُبَّ قِشْرٍ مَحَضْتَه عن لباب
ولحـومٍ عَرَّقتَها من عظام

أيُّ وُتْرٍ تبغي النوازلُ مني بعـ
ـد ضعف القوى وفت العظام( )

فالقارئ عندما يقرأ عن صديقه السلطان ذي العرش، وأنه كان يعيل الآخرين، وكان كالطود يخاله رجلا عظيما ذا مكانة وسؤدد، ثم عندما يفاجأ بأنه ضرس يضحك من هذا الوهم والتصوير .
وكان صديق الشاعر رجب الحريري الحجازي( ) خطفت منه عمامته، وشج السارق رأسه فكتب إليه يواسيه ويدعو على اللص أن تشل يده ثم يصف عمامته هذه التي دعا على السارق من أجلها فإذا هي قديمة بالية قد عاشت عمر النسر، وعاصرت قبائل الجاهلية، وقد وهن نسجها حتى صار كبيت العنكبوت، ولسوف يندم سارقها على أخذها لأنها لن تجديه فتيلا، كغمامة الصيف. وهذه المبالغة في وصف الحزن والمبالغة في قدم العمامة هما سبب السخرية واللطافة، يقول :

أقام وقوعُك الأحزانَ عندي
وقد شاهدتَ أهوالَ القيامة

يمينُ اللصِّ لا كانتْ وشُلَّتْ
وعن قرب يُرى من غير هامة

على خطفِ العمامةِ قد تعدى
ولكن سوف تدركُه الندامة

فلا تأسفْ على نسجٍ ضعيف
كبيتِ العنكبوتِ بلا إقامة

وحقِّكَ ليس تنفعُه بشيء
كما في الصيف لم تُجْدِ الغمامة

لقد طال بحال النسر عُمْرا
وقد شهدتْ هوازنَ واليمامة( )

ومن الظريف أيضا أن يرثي شاعر حيوانا مات، وليس هذا بجديد على أدبنا العربي، فمنذ العصر الجاهلي رثى السليك بن السلكة فرسه( ) ولكن الظرافة تكمن في وصف الشاعر أحمد الكيواني أنفة الهرة كإنسانة عاقلة، ولهذا فقد عز عليه فراقها، ولو أن الردى كان ساومه عليها لافتداها( ) بخراج قرية كاملة **!!**... يقول :

واسمع رثاءَ هُرَيْرة
كانت تُرى عندي أسيرةْ

خلس الحِمام حياتَها
وابتَّز من قلبي سرورَه

كانت تروق الناظريـ
نَ بحُسْن أخلاقٍ وصورة

كانت لنفسي إن فقدْ
تُ مسامرا أبدا سمير

تهوى الجلوسَ على النَّما
رق أو على الفُرُش الوَثيرة

ولها إذا أغضبتها
أو هجتها نفس مريرة

كانت تصيدُ الفرقدين
بوثبةٍ منها يسيرة

أعززْ علي بأن تصاب
وأن أضمِّنَها الحفيرة

لو سامها مني الردى
ما بعتُها بخَراج كورة

فليعتبرْ من كان ذا
بغيٍ ولا يركبْ غرورَه( )

ثانيا: مظاهر الرثاء :
-1المعاني التقليدية :
من خلال استقرائي لشعر الرثاء في هذا العصر تبين لي أن المراثي لاتكاد تختلف في مجمل معانيها ومضمونها العام، إلا أن هناك مظاهر تتعلق بالقضايا السياسية، أو الاجتماعية أو العقائدية السائدة في العصر :
أ_ فقصائد الرثاء عامة تستهل بالأحزان، وتصور عظم الخطب والرزء على من نعي إليه المرثي، وقد تطول هذه الأحزان حتى لتبلغ نصف القصيدة، فالشاعر " شعبان الدنوشري( ) " بكى مرثيه في سبعة وعشرين بيتا في قصيدة حوت سبعين، ومما قاله فيها معبرا عن آلامه الجسام من هذا خطبه الجسيم :
بكيتُكَ حتى لاتَ حين بكائي
وعزَّ لعظْمِ الخَطبِ فيك رجائي

وأظلمتِ الأيام بعدك واختفى
ضياءُ صباحي في ظلامِ مسائي

ألا قاتل الله المنونَ فإنها
إذا أنشبت لم تُنْتزَع بدواء( )

وواضح تأثر الشاعر بأساليب القدامى في دعائه على المنون، وتصويرها كالوحش ينشب أظفاره، ولا حيلة في رده أبدا .
وكثيرا ما نلقى في المراثي حكما مستخلصة من عالمي الموت والحياة، فالدنيا كما صورها شعراء المراثي زائلة، ونعيمها إلى نفاد، وهي تخدع ساكنها، وقد تودي بمصيره في أية لحظة مهما تحصن منها، إذ لايرد سهامها مقاوم أو حجاب، وقد يذكر بالأمم السالفة، يقول ابن رشيق "ومن عادة القدماء أن يضربوا الأمثال في المراثي بالملوك الأعزة والأمم السالفة والوعول الممتنعة في قلل الجبال والنسور والعقبان... لبأسها وطول أعمارها وذلك في أشعارهم كثير موجود لايكاد يخلو منه شعر"( )، ويقول عبد الله الزيباري( ) في ذلك :
لعَمْرُكَ ما الدنيا لأبنائِها ذُخْرُ
ولكنها دارُ الفناء بها الخُسْرُ

قرارةُ أكدارٍ ومعدن كربةٍ
حبالةُ آثار بها يُكْسَبُ الوِزْرُ

فتبدو بلذاتٍ وعيشٍ مزخرَفٍ
وما عندها إلا الخديعةُ والمكر

وكم عصبةٍ ظنوا الخلودَ بدهرهم

فلم يلبثـوا إلا ومنزلـُهم قفر

وكم حصّنـوا بالسابغات وإنما
سهامُ المنايا ليس من دونِها سِتْر( )

ومن هنا فقد أكثر الشعراء في مراثيهم من الوعظ والإرشاد والإنابة إلى الله سبحانه، يقول الشاعر العشري
تعالوْا بني دهري لنردعَ أنفسا
تميل إلى نهج الضلالةِ صابية

كأنا بوعـدِ الله لاشكَّ واقـعٌ
وموعـدِه ما للبرية لاهيـة ؟

فياربِّ بالله عفـوا ورحمة
فكنْ غافرا لي زَلتي وخطائية( )

ومن البدهي أن يكون الرثاء ترجمانا لحال المرثي، فالعالم يذكر ببحثه وفقهه، والسلطان يعظم لحكمه، ويحكى عن عدله لرعيته، والبطل يشاد بفروسيته، والشريف بنسبه، والمتصوف تذكر أحواله وأفكاره،
فحينما يرثي الشاعر عبد الرحمن البهلول( ) الزاهد أحمد النحلاوي نراه يذكر عبارات تكثر عند المتصوفة من أمثال الخواص والسر والاعتقاد، وصدق الحال والتوسل والقطب... يقول في ذلك :
زر مقامـا منه تفزْ بمزايا
حضرةِ الشيخ أحمدَ النحلاوي

وتوسَّلْ إلى الإله بصـدقٍ
فيه تظفرْ بكل ما أنت ناوي

كان من أهلِ جلَّق الشام قطبا
واضحَ السرِّ للكمالات حاوي( )

ب-كشفت المراثي عن أوضاع اجتماعية :
فمما أفادتنا به المراثي تعبيرها عن إحساس الشاعر عند دنو أجله بضرورة تذكير أولاده بنصائح تهمهم، فالشاعر محمد الدكدكجي( ) يوصي فلذات كبده ألا ينسوا والدَيهم ذوَيْ الفضل العميم عليهم، وأن يزوروا قبريهما ويقرؤوا عندهما القرآن الكريم ليتواصل برهم :
زرْ والديْكَ وقفْ على قبرَيْهما
فكأنني بك قد نقلتَ إليهما

كانا إذا ما أبصـرا بك علةً
جزعا لما تشكو وشقَّ عليهما

فلتَلحقنَّهمـا غدا أو بعده
حتما كما لحِقا هما أبويـْهما

بشراك لو قدمتَ فعلا صالحا
وقضيْتَ بعضَ الحقِّ من حقَّيْهما

وقرأتَ من آي الكتاب بقدر ما
تَسْطِيعـه وبعثتَ ذاك إليهما

فاحفظ، حُفِظْتَ، وصيتي واعمل بها
فعسى تنال الفوزَ من بُرَّيْهما( )

كما تبدو في المراثي أهمية المرأة، فالشاعر العشري يرثي العالمة ابنة راشد البهلوي فيذكر زهدها وعلمها وفصاحتها، وأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر، ولذلك حق لأهل عمان أن يندبوها ببكاء حار، يقول :
لقد غيضَ بحرُ العلمِ وانهدَّ طَوْدُهُ
وأضحى لواءُ الدين مُلقى الدعائم

وما جَمْعُها إلا كتابٌ ومصحف
كذا يبتغي من جمعِـه كل عالِم

ولا تختشي في الحق صولة صائلٍ
ولم تُثنـها في اللهِ لومـة لائم

جديرٌ بأن تبكي عمانُ وأهلُـها
عليها بدمعٍ من عيونٍ سواجم( )

وعلى الرغم من صعوبة رثاء المرأة لضيق الكلام عليه وقلة الصفات كما يقول ابن رشيق( )، إلا أن شاعرنا أخذ من صفاتها ما يدعو إلى تقديرها، فهو لم يتطرق إلى جمالها المادي وإنما إلى سماتها الفضلى التي تجعلها مكرمة بين الآخرين .
كما أبدت المراثي اهتمام المسلمين بالعلم، فهو يذكر لكل عالم، وعندما هدمت الدرعية بكى الشعراء العلم الذي اندرس فيها، قال أحمد بن المشرف :
على العلمِ نبكي إذْ قدِ اندرسَ العلمُ
ولم يبقَ فينا منه روحٌ ولا جسمُ

ولكن بقي رسمٌ من العلم داثرٌ
وعما قليل سوف ينطمسُ الـرسم

فهذا أوانُ القبضِ للعلم فلْيَنُحْ
عليه الذي في الحبِّ كان له سهم( )

كما كشفت المراثي عن أوضاع دينية، فرثاء ذوي الملل والنحل الأخرى يشير إلى وجود علاقات ودية بين أبناء المجتمع على اختلاف عقائدهم، فالشاعر "حسين الجزري"( ) يرثي صديقا له يسمى عبد المسيح فيقول :
لهفَ قلبي واللهفُ غيرُ مريح
بعد فقدي جمالَ عبد المسيح

أودعوه الثرى فغاب وقد أو
دع أحشائي لاعجَ التبريح

ليت لو كان في فؤادي مَثوا
هُ، ولو كنت ذا فؤادٍ جريح

ولو أني فديتـه بقديـم الـ
ـعمر مني وبالحديث الصحيح

إن أعشْ بعده فمن أعجب الأشـ
ـياءِ جسمٌ يعيش من بعد روح( )

وهنا نرى أن الشاعر بالغ كثيرا في رثائه حتى إنه تمنى أن يكون قلبه قبرا لصديقه عبد المسيح، وأن يفديه بالحديث الصحيح، وهذا لايقبله شرع ولا مسلم عاقل مهما بلغ به الحب مبلغه .

ج- كما كشفت المراثي عن الأوضاع السياسية الخارجية منها والداخلية كالفتوحات، والثورات الداخلية، وصور جرائم السجون وغيرها :

فالشعراء رثوا السلاطين والأبطال الفاتحين، وهذا الشاعر عبد الله الزيباري يتحدث عن استشهاد محمد القصيري فيذكر ما أعده الله للشهداء إذ يكفي أنهم أحياء عند ربهم يرزقون في جنة الله الخالدة :

شهيدٌ له في جنةِ الخلدِ روضةٌ
مع الحور والولدان يقدمُه البِشْرُ

هو الحيُّ والمرزوقُ من عند ربِّه
جنانا بها من كل ناحيةٍ قصر

وما شهداءُ السيف إلا كأنجم
محمدُنا ما بين ساداتِهم بدر( )

وهناك ثورات اتقدت جذوتها بمناوئين للدولة من أمثال فخر الدين المعني الثاني( ) الذي اتفق مع حاكم دمشق عبد الله كيوان( ) وقاما بثورة عليها انتهت بقتلهما، فقال أبو بكر العمري( ) في كيوان :

ولما طغى كيوانُ في الشام واعتدى
وأرجفَ أهليها وللظلم فصَّلا

فقلت لهم قروا عيونا وأرخوا
ففي بعلبكَّ قتلُ كيوانَ أصِّلا( )

ومن الرثاء السياسي ما تحدث عن مظالم السجون، فالحسن البوريني( ) يذكر في رثائه لأحمد العجمي الصالحي أنه توفي تحت التعذيب، وماتت زوجته في اليوم نفسه فخرجت الجنازتان معا :

أحمدُ من غدا شهيدا بظلم
واعتداءٍ، واللهُ خصمُ الظلوم

والعجميُّ شهرةٌ من أبيه
كان ذا همـةٍ وجُـودٍ جسيم

وهو مع زوجةٍ له وسْط قبر
فنا جملةٍ بحكم الحكيم

هو بالقتل وهي بالموت حزنا
قد أُرِيحا من حكم دهرٍ غشوم( )

وتحولت بعض المراثي إلى أهاج ولكن للموتى، إذ راح الشعراء يذكرون سيئات ولاتهم بعد وفاتهم وإن لم يقوموا بثورة على الدولة مع أن الشرع نهى عن هذا إذ قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "إذا مات صاحبكم فدعوه ولا تقعوا فيه"( )، هذاأحمد باشا الجزار( ) قد كثر بطشه فلما مات ذكر الشعراء جرائره فقال أحدهم في وفاته :

عينُ المظالم والمآثم والردى
شر العوالمِ إن تفكرَ أوعملْ

جزارُ لكنْ للفضائلِ جازرٌ
مَهدي ولكن بالرذائلِ قد حفل

بحياته كان الغلا ثم الوبا
والقحطُ والجَوْرُ الذي لا يحتمل

وبموته زال العنا ياحبذا
هذا المنى غاب التَّعَدّي والوجل( )

والشاعر نجم الدين الغزي( ) يرثي واليا فيذكر حسناته وسيئاته، وكان هذا الوالي ممن قتل الظلمة والمفسدين ولكنه _ برأي الشاعر _ قد جار عليهم ولهذا نرى الشاعر يذكر فعال الوالي ماصلح منها وما كان غير ذلك،، يقول في هذا الوالي الذي كان يدعى الشوربزي:( )

والموت ما زال أخّاذا لذي نفَس
لكن قد اختلفَتْ فيهم أساليبُهُ

أما نظرت إلى شورْبَزهم حَسَنٍ
وكان كالسبع أدهشهم أراعيبُه

له محاسن لا تُحصى لكثرتِها
فطالما هطلتْ خيرا شآبيبُه( )

يحب تعميرَ أوقاف المساجد لا
يألو، وقد حسنَتْ فيها تراتيبُه

وكان يُحسن للأيتامِ يحضنُهم
تجري على مستوى فيهم أنابيبُه

لكنه كان ذا جـاهٍ وذا جردٍ
وجرأةٍ عظمت منها تراهيبُه

عنتْ دمشقُ ومن فيها له وغَدا
تجرُّهـم غيرُ آباء مجاذيبُه

وربما مسَّ منه الظلمُ بعضَهم
وعاث في الناس تؤذيهم يعاسيبه( )

يبادر الناس بالترهاب يوهمُهم
ممـا يبلّغُـه عنهم ديادبـُه

فليعتبر كل جبـار بميتتـِه
ما خيلُه خلدتْ كلا ولا نيبـُه

بالخير يُذكر أو بالشر كلُّ فتى
قضى فلا ليثُه يخشى ولا ذيبه( )

ولم يتورع بعض شعراء الملل الأخرى عن رثاء أعداء الدولة الذين هم من رعاياها، وهم يغتذون بخيراتها، وكان الشاعر نقولا الترك( ) قد رثى نابليون بونابرت على الرغم من احتلاله لمصر ومحاولته احتلال بلاد الشام، كما رثى الشاعر عبد الله فريج( ) قيصر روسيا الذي كان يحارب دولته التي ينتمي إليها، ومما قاله فيه :

ملكُ الملوك القيصرُ الشهم الذي
بنظيره هيهات تأتي الأعصُرُ

ملك به كان السـلام موطَّدا
فيـه يسودُ على الأنام ويفخر

خضعت لسدته الملوك وطأطأت
هـامـا لـه بمزلـة تتطهَّرُ

أواه من يـوم أتانـا نعيُه
فيـه وذاك من الإلهِ مقدَّر

يوم به رزئ السـلام وأهله
والكل فيه آسـفٌ مُتحيـر( )

فالشاعر لايرى في قيصر روسيا عدوا للبلاد، وإنما ينظر إليه بمنظار عقائدي فيثني عليه لأنه أعاد أمجاد الروم فكان كالقياصرة، بل فاقهم في عظمتهم حين أذل الملوك فعدَّ رجل سلام ...!!

ثالثا: دراسة فنية :

من خلال استقرائي لقصائد الرثاء في العصر العثماني لاحظت مظاهر فنية شتى يتعلق بعضها بمنهج القصيدة، وأخرى بالأسلوب، أو بالتصوير الفني أوبالموسيقى :

1- منهج القصيدة الرثائية

أ- لعل أهم ما يلفت النظر الحديث عن استهلال بعض المراثي بالوقفة الطللية، إذ كان من عادة العرب ألا يقفوا على أطلال الحبيب فيها لارتباط هذه الوقفة بالغزل لأن الآخذ في الرثاء يجب أن يكون مشغولا عن التشبيب بما هو فيه من الحسرة والاهتمام بالمصيبة( )، وهذا مما لايناسب الحزن والبكاء .

ولكن بعض شعراء العصر العثماني ذكر الطلل في حديث رمزي أو واقعي :

أ- فمما جاء على سبيل الرمز قول البهاء العاملي( ) في مرثية لوالده، وكان قد عاد إلى البحرين فرأى داره قد خلت منه بوفاته، فراح يقف على الأطلال رامزا بها إلى رحيله الرحيل الأبدي :

قفْ بالطلولِ وسلها أين سلماها
وروِّ من جُرَع الأجفانِ جرعاها

وردِّدِ الطرفَ في أطراف ساحتِها
وأرِّج الوصلَ من أرواح أرجاها

فإن يفُتك من الأطـلال مخبرُها
فلا يفوتنـك مرآها وريـاها

بدور تـمٍّ غمـام الموت جلَّلـها
شموسُ فضل سحابُ الترب غشاها

ياجيرة هجروا واستوطنـوا هجرا
واها لقلبي المُعَنَّى بعدكم واها

يا ثاويا بالمصلَّـى من قرى هجر

كُسِيت من حُلَـل الرضوان أصفاها

عليك منا صـلاةُ اللهِ ما صدحَـتْ
على غُصـونِ أراك الـدوح وُرْقاها( )

-2ً وقد يكون ذكر الطلل على الحقيقة لا الرمز، يعبر فيه الشاعر عن هجران اللهو والغزل كما فعل الشاعر إبراهيم بن المهتار حينما رثى الشريف فهيد بن حسن ابن أبي نمي، إذ أنكر أن يقف على طلل فتاة بعد هذا الحدث الجلل الذي غدا فيه الشريف تحت طيات الثرى، يقول في ذلك :

ما وقوفي بطلولٍ ودِمَنْ
غيَّرتْ سكانَها أيدي الزمنْ

ليَ شغْلٌ عن بكائي رسمَها
وسؤالي قفرَها بعد السَّكَن

بالذي أُسْمِعْتُـه من خبر
حرم العينَ لذاذاتِ الوَسَن

نعيُ ذي المجد الكريم المُرْتَجى
حاويَ العليا فُهَيْدٌ ذو المِنَن( )

ب- ومن المظاهر المألوفة في المراثي أن تمزج المرثية بتهنئة أو بمديح الحاكم الجديد وذلك في المراثي الرسمية، ولكن شعراء العصر العثماني توسعوا في ذلك حتى أبَّنوا العلماء وأثنوا على أولادهم وعلى من تربطهم بهم رابطة ما، كما فعل الشاعر محمد أفندي الهلالي في تعزيته لعبد القادر الجزائري إذ انتقل من تأبينه إلى الإشادة بأولاده( )، وكما تخلص الشاعر إبراهيم المفتي( ) من رثاء صديقه إلياس الكردي إلى الثناء على صديقه الآخر عبد الغني النابلسي لصلة دينية بينهما إذ يقول :

لقد ثلمت من الإسلام ثلمة
بها حصلت لجمع الناس غُمَّة

لأن لفقده اندرست علومٌ
سقى قبرا حباه اللهُ رحمة

وأبقى اللهُ للإسلامِ مولى
وعبدا للغني عَنِيْتُ اسمَه

حوى مجدا وحاز تُقى وزهدا
وجَرَّد في طريق القومِ عزمَه

أيا بحرَ العلومِ فدتْكَ روحي
فقد أوضحْتَ مسألةً مهمة( )

ج-وأما نهاية المرثية فلم تخرج عما عهد فيها: دعاء للميت بالمغفرة والرحمة في القبر ويوم العرض الأكبر، من ذلك قول مصطفى اللوجي ( )

سقى قبره عفوا وغفرا ورحمة
ومن كوثر المختار يسقى ويكرم( )

وقد تشمل الدعوة المسلمين عامة( )، وقد تقتصر على ذكر سقيا القبر( ) على نحو ماعهد في عموم المراثي، وقد تختم بالصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم على نحو قول أحمد العطار( ) وقد جمع الدعاء والصلاة :

عليه رحمةُ ربي دائما وكُسي
من سُندس العفوِ ثوبا مُدهشَ البصر

واصبرْ تفزْ فالتأسي لائقٌ بوفا
ةِ أشرفِ الخلق من بدوٍ ومن حضر

صلى عليه إلهي دائما أبدا
ما مالتِ الشمسُ بالآصالِ والبُكُر( )

وهذا الجمع قليل في المراثي العربية في ذلك العهد .

د- وحدة القصيدة العضوية :

إذا كان هناك خلاف حول توفر الوحدة العضوية في قصائد المديح لتعدد موضوعاتها، فإن قصائد الرثاء تتوفر فيها هذه الوحدة بلا خلاف بين الدارسين لأن موضوعها واحد وهو يسير بين الاستهلال بالبكاء والأحزان، ثم التأبين ثم الدعاء، فإن جمعت التهنئة أو المديح فلأن الشخص الذي يعزى قد حل في منصب المتوفى، ولكل مقام مقال .

وبهذا تغدو قصيدة الرثاء ملتحمة الأجزاء لاتنافر بين أقسامها، ولا تفكك بين أوصابها كما يقول الحاتمي وابن رشيق .( )

فالشاعر فتح الله بن النحاس( ) عزى صديقه في قصيدة متوسطة الطول تبلغ ثمانية وثلاثين بيتا، وكان قد انفعلت نفسه لوفاة ابن صديقه الشاب العالم، فصب أحزانه في قصيدة التحمت أجزاؤها في بوتقة واحدة إذ استهلها بالتعبير عن جسامة الخطب الذي حل بصديقه لوفاة فلذة كبده، وهذا الخطب مما يشيب له الرضيع، ويذرف الدموع، ويفطر القلوب، ويوقد في المهج نار الحزن الأليم :

يا لقومي إن الخطبَ جسيمٌ
ومصابٌ فيه قد شابَ الفطيمْ

مهجتي في النازعاتِ انفطرتْ
وانشقاقُ القلبِ بالحزن الأليم

أنا يعقـوبُ هموم وعناء
باكيَ الدمع ولي قلبٌ كظيـم

والغضـا في مهجتي مشتعلٌ
وأنا من فرطِ أشجاني أهيـم

فلمن أشكـو وما لي مُسْعِدٌ
إنما أشكو إلى اللهِ العليـم( )

ثم انتقل بعد ذلك إلى تأبين المتوفى، وهذا أمر بدهي فالحزن عليه كان لخلاله الحميدة من كرم وشجاعة وعلم ...

أحمدُ الأوصافِ ذو العِلم الذي
كان في العالم كالطَّودِ العظيم

كان واللهِ نجيبـا بارعا
وتقيـا من تقـيٍّ وفهيـم

ثم تحدث عن انتقاله إلى جوار ربه وطلب من أبيه أن يصبر على فراقه، ويتأسى بقصة أهل الكهف فهم على طول مكثهم قد توفاهم الله، كما يذكّر بالرسول صلى الله عليه وسلم والرسل الذين سبقوه إلى ربهم، ويبين في نهاية المطاف أن كأس الموت يدور على كل حي، وكل نعيم إلى زوال :

ربِّ أفرغْ صبرَ أيوب على
حسَنِ الأوصافِ ذي الفضلِ العميمْ

أيها البدرُ التميمــيُّ الذي
بدرُه قد غاب والخطبُ جسيـم

أين من سادوا وشادوا وبنَوا
أين أهلُ الكهف أصحابُ الرقـيم

أين طهَ المصطفى خيرُ الورى
أين رسْلُ الواحدِ الحـق الحكيم

إنما المـوتُ مُدامٌ دائـرٌ
يشربُ المخدومُ منه والخَـديم

وذكر الرسول صلى الله عليه وسلم وأهل الكهف والرسل استدعاء إيحائي له دلالته المعنوية والشعورية معا.( )
وأخيرا كرر التعبير عن أشجانه، ثم أرخ لوفاته على عادة العصر وذلك بقوله :

أنشد الملاح في تاريخه
أحمد الحبر التميمي بالنعيم

هـ - وكثرت المقطعات الشعرية الرثائية في هذا العصر ولكنها لم تك لتعبر عن جليل الخطب كما هو حال القصائد بل كانت تكثف الصور والصفات، وتهتم بالإتيان بالجديد من المعاني والأخيلة، فضلا عن أن معظمها يتعمد التأريخ للوفاة خلافا لمعظم القصائد التي لا تلقي لذلك بالا إلا ماندر، ويكون التأريخ عادة بحساب الجمل( )، وتكون حروف العبارة المذكورة بعد كلمة التاريخ مساوية في أرقامها لسنة وفاة المرثي، من ذلك قول الشاعر إبراهيم العطار( ) في مقطعة رثى بها صديقه مصطفى الشطي الذي توفي 1269هـ :

روضةٌ من جنةِ الخلدِ بها
ماجدٌ بعهـدِ مولاه وفـى

وردُه القرآنُ يتلو مخلصا
وحديثُ الهاشميِّ المصطفى

كم مـزايا ندبَتْه مثلما
بكتِ التقـوى عليه أسفا

إن رضوانَ الإله أتحفـا
أرخوا طيبا (ضريح المصطفى( )(

1269 هـ

ونلاحظ أن هذه المقطعة شابهت الرباعيات إذ التزم بها الشاعر في الأشطر الأولى النصب فجاء حرف الألف كروي لها مما أوحى بمد الصفات .
ومما ورد من صفات مكثفة قول الشاعر عبد المحسن بن سالم القلعي( ) في مرثية لشريف مكة زيد بن محسن :

يا أهلَ مكة إن سيـدَنا الذي
ملكَ الحجازَ وكان فيه الأرشدُ

ربُّ السماحةِ والشجاعة والحيا
والحلمِ، وصَفْاهُ التقى والسؤدد

لقيَ الإلهَ فكـان تأريخي له
زيدُ بنُ محسنٍ في الجنان مُخَلَّدُ( )

2-مظاهر أسلوبية في المراثي :
وأعني به ما تعلق بأسلوب المراثي ولغتها، من ذلك كثرة ألفاظ المبالغة، ودمج النثر بالشعر في بعض المراثي، والمعارضات الشعرية :
أ – فمن المبالغات الأسلوبية قول محمد بن عمر العرضي( ) في مرثية له :
حبيبٌ فقدْنا منه نجمَ سُعودِه
وكوكبَه الوضاحَ بل قمرَ التمِّ

أقامت عليه الكائناتُ مآتما
فدمعُ السحابِ الجُوْنِ من بعده يهمي

وألبس أثوابَ الحدادِ الدجى أسى
وبدرُ الدجى في وجهه أثرُ اللطم

وقد لبسَتْ ثوبَ الصدار سماؤُنا
بغيمٍ وليس الغيمُ إلا من الغم

وقد حلقتْ رأسا وألقتْ جلاببا
وشقتْ جيوبا روضة جادها الوسمي

وصكَّتْ بنعلِ الفرقدين صدورَها
فمن زُرْقةٍ قد أثرت أثر الختم( )

فالشاعر بالغ في حديثه عن مشاركة الطبيعة له في أحزانه، واستخدم ألفاظا وصورا تشير إلى هذا، فالكائنات تقيم مآتم، والسحاب يبكي، والدجى يلبس ثياب الحداد، والبدر يلطم خده، والغيم صار ثوبا للحزن والهم، والروضة حلقت رأسها من وقع المصيبة، وشقت جيوبها، وضربت صدرها بنعل النجوم فازرق جلدها، وهذا التكاثف في الصور والمبالغة بها سمة من سمات الشعراء المتصنعين في ذلك العصر .
أما دمج الشعر بالنثر فقد وجد منذ العصر المملوكي ثم في العهد العثماني على ندرة فيهما .
ب – وهناك معارضات رثائية لقصائد للقدامى مع تضمين بعض أقوالهم وتغيير المجال الذي قيلت فيه،، أو لنقل إنها احتذاء فني بالمفهوم المعاصر فالشاعر كامل الكيلاني الإدلبي( ) عارض معلقة امرئ القيس الشهيرة، وجاء بذلك في مرثية لصديقه، ولكنه لم يلتزم حرف روي الشاعر الجاهلي، قال :
قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ نغادرُه
حيارى عليه الدهرَ كنا نحاذرُهْ

قفا أرشداني أين أغدو وأحسِنا
فما (حسَنٌ) بعد (ابن طه) أثابره

وما (كاملُ) الأشجان يندبُه المدى
قفا نبك من ذكرى حبيبٍ نغادره

قفا أوقفا دمعي على غيرِ نعيه
ولا تطلبا قلبي فقد طار طائره( )

وفي هذه المعارضة نرى الشاعر يتأثر بامرئ القيس في معلقته الغزلية، ويأتي بقصيدته في غير مجال الشاعر الجاهلي، وفي هذا برأيي إيحاء ذميم لأنه لاينسجم والموضوع الذي هو بصدده .
وقد كثرت المعارضات حتى بين أبناء العصر الواحد، فالشاعر أحمد بن النقيب( ) توفي له أخ فكتب إلى صديقه أبي الوفاء العرضي يعزيه بولديه ويذكر مصيبته قي شقيقه :

رزءٌ ألمَّ وحسرةٌ تتوالى
ومصيبـةٌ قد جرَّتِ الأذيالا

وفراقُ إلفٍ إن أردتَ تصبُّرا
عنه أردت من الزمـان محالا

هيهـات مَنْ لي بالرثاء وفقدُه
لم يبق فيِّ بقيَّـة ومجالا

إن المصيبـة ناسبَـتْ مابيننا
إذ حـوَّلت بحلولها الأحوالا

فثُكِلْتَ مخدومَيْن كلٌّ منهما
قد كان في أفق السعود هلالا

لو أمهلا ملأا العيونَ محاسنا
وكذا القلـوبَ مهابة وكمالا( )

فأجابه أبو الوفاء العرضي معارضا قصيدته محتذيا معانيه ووزنه العروضي ورويه، إذ جاء بها على البحر الكامل، وعلى روي (اللام الموصولة بالألف :(

لهفي على بدرٍ تكامَلَ بعدما
قد سار في ذاك الكمال هلالا

أَعْظِمْ به رزءاً أتاح مصائبـا
فتَّ القلوبَ ومزقَ الأوصـالا

ما كنتُ أعلمُ قبل حمل سريرِه
أن الرجالَ تسيِّر الأجبالا

وذكر المحبي أن كليهما اقتفى أثر الشريف الرضي في قصيدته التي رثى بها الصاحب بن عباد ومطلعها :

أكذا المنونُ تقطِّر الآجالا
أكذا الزمانُ يُضَعْضِعُ الأجبالا

وواضح التأثر بالوزن والروي والمعنى .

-3مظاهر في التصوير الفني

تتآزر الصورة الفنية مع اللغة والموسيقى لتعبر عن أحاسيس الشاعر وانفعالاته، وتبرز المعنى حيا، وتكشف عن أغوار النفس. وحين تنفعل نفس الأديب لحدث ما وتتوهج الفكرة في مخيلته وتستولي على مشاعره يعبر عنها بلغة غير عادية، لغة تستمد من الطبيعة عناصرها، ثم يضيف الشاعر إليها عناصر موسيقية تجعلها أقدر على التعبير وتبيان موقفه من الحياة وناسها.( )

والصور التي يرثي بها المتوفى هي الصور التي يمدح بها الأحياء، فالمرثي كما يبدو في شعر المراثي بحر في عطائه أو في علمه، وطود في حلمه، وأسد ضرغام في شجاعته، وإن مدارس العلم تبكيه، كما تبكيه الأرامل والثكالى، والشاعر يحس أن الشمس قد كسفت بوفاة المرثي، وأن الجبل قد دك، والسماء قد ذرفت دموعها، وهذه الصور والأخيلة تتكرر في عامة المراثي .

وقد عبر بعض الشعراء عن مشاعرهم في صور خيالية مؤثرة، فالشاعر محمد الهلالي( ) شبه الدنيا بعجوز شمطاء تصطاد الناس واحدا تلو الآخر، ويخالها الناظر إليها حسناء فاتنة لعوب تخون الناس، ولا ينجو من شرها أحد إلا من سلّم أمره لقضاء الله وقدره، يقول في ذلك :

لحى اللهُ دارا للزوال نعيمُها
وأولُها مهدٌ وآخرُها لحْدُ

فتاةٌ تراها وهي شرُّ عجوزة
كما الدهرُ لم يصرِمْ حبائلَها الشد

تصيد البـرايا واحدا بعد واحد
فلم ينجُ منهـا لاكريم ولا وغد

مجربـةٌ تُبًّا لها من خؤونةٍ
فلا مَوْثِقٌ منهـا يدوم ولا عهد

لعوبٌ كما الصهبا بألبابِ أهلها
تروح بهم طورا وطورا بهم تغدو

فما نصحَتْ إلا وغشت وهكذا
قياس قضاياها بنـا العكس والطرد

فليس لنا إلا التوكلُ والرضا
بما قد قضاهُ الواحدُ الأحدُ الفرد( )

ب – وبعضهم صور أحاسيسه تجاه المرثي من خلال مطارحات خيالية بين إنسان وإنسان، أوبين إنسان ونبات، أو تخيل صورا من العالم الآخر، عالم البرزخ .

فمن النوع الأول، المطارحات الخيالية، ما كان بين الشاعر والنبات في رثاء والد الشاعر صلاح الدين الكوراني( ) إذ كان الشاعر أحمد بن النقيب قد وقف على قبر المرثي فرأى شجرة عناب قد اخضرت أوراقها وأينع ثمرها فتحسر على المرثي لأن الطبيعة لم تحزن عليه، وتخيل امرأة تسأله عن سبب هذه الخضرة والحمرة وتتعجب من عدم ذبوله حزنا، ثم يبين أن هذه الشجرة قد ظهرت نضارتها بعدما دفن المرثي إلى جوارها فاقتبست من كرمه الفياض ما جعلها تفيض بخيرها، يقول في ذلك :

وقائلةٍ والدمعُ في صحن خدِّها
بفيضٍ كهطَّالٍ من السحْب قد همَى

أرى شجرَ العنابِ في البقعةِ التي
بها جدَثٌ ضمَّ الشريفَ المعَظَّما

له خضـرةُ المرتاح حتى كأنـه
على فقده ما إنْ أحسَّ تألُّمـا

وأغصـانُه فيها ثمـارٌ كأنهـا
بحمرتِهـا تُبدي السرورَ تلوُّما

ولو أنصفتْ كانت لعظمِ مصابِه
ذوتْ واكفهرَّتْ حيرةً وتنـدُّما

فقلتُ لها ما كان ذاك تهـاونا
بما نالنـا من رُزْئِه وتهضُّما

ولكنها لما وضعْنا بأصله
غديـرا بأنواع الفضائل مُفْعَما

بدتْ خضرةٌ منه تروق وحزنُه
كميـنٌ فلا تستفظعيـه توهما

وما احمرَّتِ الأثمـار إلا لأننا
سقينـاه دمعا كان أكثرُه دما( )

ولما قرأ الشاعر صلاح الدين الكوراني هذه الأبيات تأثر أيما تأثر، وراح يناجي شجرة العناب ويسألها عن سبب نضارتها، فأجاب هذا الشجر في مطارحة خيالية لطيفة الوقع، مبينا أن سبب نضارته كان لمجاورته المرثي الفاضل، والمرء يتأثر بجيرانه، ولهذا قيل الجار قبل الدار، يقول في ذلك :

نعم فرحتي أني مجاورُ سيدٍ
نما حسبا في عصره وتكرما

وحضرتُه روضٌ من الجنة التي
زهَتْ بضجيعٍ كان بالعلم مُغْرَما

أتعجب بي إذ كنت في جنب روضةٍ
وحقـي فيها أنْ أقيـمَ وألـزما

وقد قيل في الأسماع إنْ كنتِ سامعا
خذِ الجارَ قبل الدارِ إن كنت مسلما

ومن كان بعد الموتِ يُذكَر بالعلى
فبالذكرِ يحيـا ثانيا حيث يمما

ثم قال على لسان ابن المرثي :

فقلتُ له يُهنيكَ طيبُ جـوارِه
وحيَّاك وسميُّ الغمـام إذا همى

فواعجبـا حتى النباتُ زهـا به
فحـق لنا عن فضله أن نترجما( )

والشاعر هنا كما يبدو اقتبس من التراث سؤال الشاعرة ابنة طريف التغلبية( ) للشجر إذ ناجت شجر الخابور ولامته على نضارته وعدم حزنه على أخيها، ولكن هذه المرثية جاءت في مطارحة خيالية جديدة اشترك فيها أربع شخصيات هي أحمد ابن النقيب والمرأة التي سألته، والكوراني وشجرة العناب .

ومن النوع الثاني، وأعني به المطارحة الخيالية التي تصور العالم الآخر فقد بدت في رثاء الشاعر معروف الرصافي( ) لصديقه محمود شوكت( ) الذي قتله الاتحاديون الطورانيون في عهد السلطان العثماني محمد رشاد،

وهي مطارحة خيالية وهمية تتحدث عن عالم البرزخ، وتمثل مشهدا جرت حوادثه واستمد حواره من هذا العالم، وقد بدأه بالتعبير عن إحساسه بالأرق لشدة حزنه على المرثي ثم ذكر أنه غفا فرأى الميت في عالم الآخرة قد نصب له سرادق من نور مرتفع الدعائم، وكانت قناديل خضر تملأ أرجاء السماء، وفي يده سيف من صنع إلهي، وبين يديه ملائكة مرد، وقد اصطف حوله جند، فلما رأى الميتُ شاعرَنا ناداه فأحس الرصافي بقشعريرة في بدنه من هول الموقف، ورحب الميت به، وأبلغه تحياته إلى الوطن الذي كان يسعى من أجله، وقتل في سبيله، ولما استيقظ الرصافي أحس برهبة شديدة، وراح يذرف الدمع على المرثي ويقول :

لقد بت مطروفَ النواظرِ بالسهد
تقلبني فوق الفراش يد الوجد

فما أنا إلا غفوة فخيالـةٌ
لدى العالمِ العُلويِّ في ربوةِ الخلد

رأيت كأني قمتُ حولَ سُرادقٍ
من النورِ مرفوعِ الدعائم ممتد

وقد أشرقت ملءَ السماوات حوله
قناديلُ خضرٌ تستنير بلا وقد

وفي يده سيف أجيد صقالـه
على أنه من صنعةِ اللهِ لا الهند

وقد جلـّلـَـثه بردةٌ سندسية
ومن تحتها درعٌ إلهيةُ السـرد

وبين يديه زمرةٌ من ملائـكٍ
مُجَنَّحَةُ الأيدي غَرانقة مُرْد( )

وقد قام من حول السرادق موكب
عظيم به اصطفت ألوفٌ من الجند

أشار أن اقرب يارصافي ما لنا
نراك وحيدا قد وقفتَ على بعد

فجئت وجسمي قد تغشَّتْه رجفةٌ
كما يرجف المَقرورُ من شدة البرد

فقال لقد آنسْتَ إذ جئت إننا
عهدناك في زوارنا مخلصَ الوُدِّ

فأبلغ تحياتي إلى الوطن الذي
سعيْتُ إلى إعلائِه باذلا جهدي

فإني أرى موتي بخدمةِ أمتي
حياةً به طعمُ الشهادةِ كالشهد

فقمت وبي من خشيةِ الله رعدةٌ

وأحسست من رؤياي بردا على كبدي( )

ج - ولم يتوقف التصوير في المراثي عند الصور الخيالية والوهمية وإنما بدا جماله أيضا في التصوير الواقعي لمشاهد حية يراها المرء في أمثال هذه المصائب العظام، وليس أدل على ذلك من تصوير نعش الميت بكل ما فيه من رهبة الموقف، وهاهو الشاعر أمين ناصر الدين يصف لنا لحظة مقدم جثمان الأمير محمد رسلان، وكان هذا قد توفي إبان إسقاط عرش السلطان عبد الحميد الثاني، فجيء بجثمانه على باخرة ليوارى في بيروت .
ويرسم الشاعر لنا لوحة تعبر عن هذا الحدث الجلل فإذا الموج يتهيب الموقف، والسفينة تزفر، والميناء يجم، والطيور تنوح، وقد أحاط الوقار بالنعش، وكان والد المتوفى المسكين يسير خلفه وهو يذرف الدمع الغزير عليه وقد سئم الحياة بعده، يقول في ذلك :

وجاريةٌ في اليـم تفري عُبابَه
ولم يكُ من دون الشراع لها خِدْرُ

إذا الموجُ داناها انثنى مُتَهيِّبا
ولم أدر أن المـوجَ يملكُه ذعر

وما ذاك إلا أن للموت فوقها
رقيبا له عينٌ لهـا نظرٌ شـزر

تسير بجثمان الأميـرِ محمدٍ
فمن فوقهـا بحرٌ ومن تحتها بحر

ولما رست في ثغرِ بيروتَ رددتْ
زفيرا فلم يبسمْ لها ذلك الثغر

وريعت عروسُ الشام حتى قيانها
نوائحُ من حزنٍ لأدمعها نثر

هناك بـدا نعش الشهيـدِ يحفُّه
وقارٌ وتعلوه المثابـةُ والأجر

هناك أبٌ جـمُّ الكآبةِ قلبُه
بكف الردى شطرٌ وفي صدره شطر

يسيرُ الهوينى خلفَ نعش فقيدِه
ويلثمُـه وجدا وأدمعه غزر

يقولُ وقد ضمَّ التـراب فقيده
أيصفو لمثلي بعد مصرعِك العمر( )

4-مظاهر موسيقية في شعر المراثي
الرثاء موضوع جليل يميل فيه الشاعر إلى الوقار، وتمثل البحور الخليلية الرسمية بجرسها الموسيقي وقافيتها الموحدة خلجات الشاعر وبواطنه إن كان فرحا أو ترحا، والشاعر حينما ينطلق في التعبير عن أحزانه لايختار بحرا معينا ولكنه يقول ما تمليه عليه حالته النفسية( )، وقد بدا في شعر المراثي مظاهر موسيقية متعددة يتعلق بعضها بالأوزان، والآخر بالأنواع الموسيقية :

أ- فمما يتعلق بالأولى حديث الناقد القرطاجني عن الأبحر العروضية، فهو يرى أن البحر الطويل بحر مهيب وقور، ويشبهه في ذلك البسيط لما فيهما من جلال، أما البحر الكامل فمتدفق، والبحرالرمل بحر التصفيقة الشعرية، والأبحر القصيرة فيها من خفة ورقة .( )
ومن هنا فإن الشعراء نأوا عن البحر الرمل، وقلما نظموا على الأبحر القصيرة إلا إن دعا إلى ذلك داع ما يتبع الحالة النفسية للشاعر، لأن اختيار الوزن يتأثر بها كما قال د. عز الدين إسماعيل( )، وإن كان هذا لا ينطبق على جميع الشعراء والعصور، لأن لكل شاعر ذاتيته الخاصة، ومع ذلك نستطيع أن نقول إن معظم المراثي جاءت على البحر الطويل والبسيط، ومنها قول الشاعر أحمد بن علي بن مشرف :

قضاء من الرحمن جار بحكمه
ولله من قبل الأمور ومن بعد( )

واختار الشاعر البهاء العاملي البحر البسيط ميدانا لمرثيته لوالده حين قال :

قف بالطلول وسلها أين سلماها
ورو من جرع الأحزان جرعاها

وردد الطرف في أطراف ساحتها
وأرج الوصل من أرواح أرجاها( )

والملاحظ هنا أن الشاعر لم يعتمد على الوزن فحسب وإنما جاء بعناصر موسيقية أخرى كالمدود والهاء ليضفي على النص إيقاعا يتعدى الوزن والقافية فيشير به إلى مد النفثات الصادرة من أعماق قلبه.
ولكن المطلع على مراثي العصر يدرك أن شعراءه باتوا يميلون إلى الأبحر المجزوءة للحديث عن هذا الغرض الشعري، فالشاعر أحمد بن إبراهيم الخياري( ) نظم على مجزوء البحر الكامل، وأضاف إلى جمال الوزن جمال التسبيغ( ) والتدوير ليعبر بهذا كله عن مد أحزانه وآلامه وذلك في قوله :

فجأ الأنامَ جميعَهم
خطبٌ ألمَّ بهم عجيبْ

ومصيبةٌ قد أوجبتْ
للطفلِ فيها أن يشيب

ورزيةٌ عظمَتْ بدا
ر المصطفى طهَ الحبيب

فُقِدَ الإمامُ الحافظُ الـ
ـعلامةُ الشهمُ الخطيب( )

وهذا أبو بكر العمري يرثي عالما فيقول على مجزوء البحر الوافر :

مغاني العلمِ قد درسَتْ
وقد أقوتْ معالمُها

لموتِ العالِمِ النِّحْريـ
ـر عيني فاضَ ساجِمُها

من افتخـرت به العليا
ء وانتظمت مكارمها

إمام العصر شمس الديـ
ـن والدنيا مساهمها

قضى وعليه قد قامت
من الدنيا مآتمها( )

ومن المعلوم أن البحر الوافر يناسب تقلبات الحروب، ولكن شاعرنا اختاره ليعبر به عن شدة اضطرابه لموت هذا العالم النحرير كما يقول عنه .
وقد يكون اختيار المجزوء للدلالة على فرحة الخلاص من ظلم المرثي، فكأن الشاعر أصيب بخفة الفرحة لموت الظالم فراح يعبر عن ذلك بوزن رشيق كما فعل الشاعر يوسف العلمي( ) في تأريخه لوفاة منصور الفريخ الذي قتله والي الشام بتحريض من فخر الدين المعني الثاني :
في السجن شخصٌ اشتبكْ
مقيَّدا من غير ِشكّْ

من ظلمِه وجَورِه
عليـه قد دارَ الفلك

فكم طغى وكم بغى
وكم سبى وكم فتَـك

لم يُرَ في خير سعى
ولا مشـى ولا سلك

وقد رأى تاريخـه
ابن فُرَيْخ جا هلك( )

ولم يكتف الشعراء بالمجزوءات بل رثوا أيضا على الأبحر القصيرة كالمتقارب والمتدارك، ومن الثاني قول الشاعر محمد عياد( ) في إحدى مراثيه :
أنجومُ الفضلِ قد انكدرتْ
فخبـا منها نور الدين

لا بل قلبي جزعٌ من فقـ
ـد محمدٍ الترمانيني

قلبي فيه تـرح لما
داعيـه أتاه على حين

حقّتْ أملاكُ اللهِ به
إذ سـار إلى عِلّـيين

فصحائفُه بيضٌ خضرٌ
مُلِئَتْ بالتقوى وبالدين( )

ومن الشعراء من عمد إلى عناصر موسيقية تضفي على النص إيقاعا داخليا يستنفد به الشاعر الطاقة الشعورية، ذلك لأن الموسيقي كما قال د. محمد عزام يفرغ شحنته العاطفية مستعينا بحركات يده، أما الشاعر فيستعين بعناصر موسيقية ليعبر عن تأجج عواطفه وانفعالاته، وقد تكون هذه ألفاظا مكررة، أو حروفا أو عناصر صوتية أخرى تعبر عن حالته الشعورية فترتاح نفسه لها، ولكل انفعال بنيته الموسيقية المعبرة، والإيقاع تعبير فيزيولوجي عن توتر عصبي معين، وهو ثلاثي الأثر عقلي وجمالي يوجد جوا من التأمل الخيالي فيغني الموضوع، ونفسي يعادل

ضربات القلب( )، ولهذا نرى الرصافي يعمد إلى الإيقاع فضلا عن وزن البحر المتقارب فيقول في اضطراب شديد وحزن مرير على سقوط أدرنة في يد الأعداء حزنا بدا في من اختياره للوزن والمدود والتنوين :

أدرنةٌ مهلا فإن الظبى
سترعى لك العهدَ والموثقا

وداعا لمغناكِ زاهي الرُّبا
وداعا ولكنْ إلى الملتقى( )

فالشاعر اعتمد على عنصري التنوين ومد الألف فضلا عن جمال القافية فلحرف القاف، وهو من حروف القلقلة، إيحاء بالتقلب، وهذا ما يوحي بالاضطراب والأنين الممتد وكأنه بذلك يفرج عن توتره النفسي .

ومنهم من عمد إلى التكرار ليدل على تأثره بالحدث، فالشاعر مصطفى الأصيل( ) كرر كلمة "اليوم" في صدور الأبيات لشدة ما لقي فيه من حزن وألم لفقد العالم المتوفى، يقول :

اليومَ هُدَّ من الشريعة ركنُها
وعفَتْ معالمُها وتلك الأربع

اليوم غابَ عن الحقيقة بدرُها
فظلامُها من بعده لايُقْشع

اليوم حل بديننا وبأهلِه
خرقٌ ليوم قيامةٍ لايرقع

اليوم ماتَ محمدٌ بنُ محمد
خيرُ الورى من في الخليقةِ يشفع

اليوم مات الهُبْرويُّ محمد
أستاذُنا العلمُ الهُمامُ الأروع

بدر الهدى/ بحر المواهب والندى
رب المعالي/ والإمام الأروع( )

فالشاعر اعتمد على عناصر موسيقية أبرزها اختيار مجزوء الكامل بتقلباته الصوتية وكذلك على تكرار الكلمة وهذا التكرار ينم عن شدة التأثر والانفعال، ثم أخيرا على التفويف( )، وهو يضفي على النص جرسا عذبا يوحي بعظمة المرثي .

ب – الأنواع الموسيقية :

جاء بعض المراثي في أشكال موسيقية غير القصيد كالرباعيات والمخمسات والمسبعات، وهذا مالم يألفه الشعر العربي في المراثي السالفات لأن هذه كانت تجنح غالبا إلى الوقار والهدوء، ولا تعمد إلى تقلبات القوافي وتغيراتها، لكن بعض الشعراء نظموا عليها :

– ً1فمن الرباعيات نوع يسمى الدوبيت( )، وهو نظم فارسي كثر منذ العصر العباسي مع اختلاط الأمم، وقد رثى به الحسن البوريني فقال :

ياربَّ تبعْتُ سيِّدَ الأبرار
واخترت سبيل صحبة الأخيار

واليوم فليس لي سوى لطفِك بي
ياربِّ فوقّني عذابِ النار( )

فهذا الوزن (فعلن متفاعلن فعولن فعلن) وزن فارسي( ) لا عربي، ومن ثم فإنه يناسب الأعاجم الذين عاشوا في المجتمع الإسلامي، أو العرب من أصول أعجمية، ولهذا نراه ينتشر في هذا العصر الذي كثر فيه اختلاط الأمم بسبب الفتوحات .

– 2ومنهم من نظم مخمسات رثائية فالشاعر محمد المطلبي رثى حلب حينما جاءها الزلزال الكبير المدمر في مخمسة بلغت سبعا وخمسين مقطوعة تحدث فيها عن دمارها فقال :

ما لليالي تَمادى في مساويها
والدهرُ كدَّرَ لذَّاتي وصافيها

والحادثاتُ رمَتْني في دواهيها
والعينُ بالدمع ما جفت مآقيها

والبيضُ والسمرُ ما كلَّت مواضيها

زلازلٌ ما سمعنا مثلَها أبدا
ولا زمانٌ مضى في مثلها شَهدا

ولا كتابٌ ولا خبر بها ورَدا
ولا سماءٌ ولا جبل لها رعدا

مثل الرعيدِ الذي لا زال يوحيها( )

فالشاعر جاء بهذه المخمسة ملتزما في مقطوعتها الأولى روي الهاء الموصولة بالألف والمردوفة، وجاء في الثانية على روي الدال في أشطرها الأربعة، وكان الخامس على روي المطلع، وهذا التنويع يشير إلى اضطراب الشاعر، ومن البدو في بلادنا من يهتاج ويتمايل عندما تأتيه المصيبة الكبرى دليلا على شدة الانفعال، ولأمر ما كان الطرب في اللغة يحمل معنى الفرح والحزن معا( )

ج - ومن الشعراء من نظم على المسبعات، وقد رثى الشاعر محمود الحمزاوي( ) أستاذه في مسبعة جاءت أشطرالصدور على روي وأشطر الأعجاز على روي آخر، وذلك في قوله :

هل كوكبُ العلمِ استكنْ
تحت الثرى غصن الأديمْ

أم تخذ القبرَ وطنْ
لما رأى أن لا نديـم

يافاضلا في كل فنْ
من بعده الفضلُ عقيـم

كم ذا له فينـا مِنَنْ
مازت لنا الفهم السقيم

قد ملأ الدنيا حَزَنْ
بندبـه هذا الكريم

حررْتُ لما أنْ سَكنْ
في ظلِّ مولاه الرحيم

تاريخه الشطي حسَن

يَقِرُّ في دارِ النعيم( )

فالنون المقيدة في صدور الأبيات مع الميم المقيدة أدتا إلى الإحساس بأن الشاعر بات مقيدا بالأحزان، وقد مد هذه الأحزان بالتسبيغ الذي جاء في أعجاز الأبيات، وهذا كله جاء في مرثية سباعية لم يألف العرب مثيلها في مراثيهم .

الخاتمة

وأخيرا... أستطيع أن أقول إن أنواع الرثاء لم تتغير في هذا العصر عما عهدته في العصور السالفات: مدائح رسمية وإن كانت قليلة لا تتناسب والجهود التي قام بها السلاطين، ورثاء للنفس والأهل والعلماء والأصدقاء، ورثاء دعابة لجماد أو حيوان ظاهره الألم وغايته الضحك والترويح عن النفس، وحديث عن نكبات المدن .

وبعض هذه الأنواع وجد في مناطق دون مناطق، فرثاء الملك الضائع وجد في مصر بينما لانرى له صدى في الشام، ولعل وجود الاستعمار المبكر في أراضيها حرك الوعي وجعل أهلها يتمسكون بالسلطان والخلافة العثمانية رمز الوحدة في وجه العدو .

وهذه المراثي تتبع غالبا النهج التقليدي في معانيها، فعنصر الحزن والبكاء والألم، والحكم المستمدة من هذا الجو المشحون بالعبر، وتأبين المتوفى، والدعاء له، والحديث عن مصائب الناس في دهورهم أمور ألفها الشعر العربي وسيظل يألفها ما حنت البشرية إلى أحبائها الذين تفقدهم .

ولعل الجديد في هذه الدراسة كشف العلاقة بين قصائد الرثاء والأوضاع الدينية والاجتماعية والسياسية للدولة العثمانية، كالحديث عن الفتوحات الخارجية والثورات الداخلية، وعن أهمية العلم والمرأة، والتنديد بالأخطاء والمفاسد، مع العلم أن ذكر سيئات المتوفي للعبرة أو للتشفي لم يكن مألوفا في هذا النوع من الشعر، وكذلك رثاء ذوي الأديان والعقائد الأخرى في المجتمع الإسلامي، وهذا ما كشف عن العلاقات بين أبناء هذه العقائد في ظل الدولة الإسلامية في ذلك العهد .

أما فنية الرثاء فقد بدا فيه جديد إذ وقف على أطلال المرثي وقوفا رمزيا يشير إلى شدة تعلق الشاعر بمن افتقده من والد أو صديق أو ملك عظيم، كما جد جديد في التصوير حين ظهرت المطارحات الخيالية وتصوير عالم البرزخ تصويرا لم يعرف من قبل، إضافة إلى ابتكار صور ومشاهد خيالية وواقعية لم تعرف من قبل وكان فيها إبداع جميل .

وكذلك ظهر في المراثي معارضات شعرية وقضايا موسيقية قلما يعمد إليها في هذا السياق فيما سبق، إذ نظم كثير منها على الأبحر القصيرة لا الطويلة الرسمية، وجاء بعضها في رباعيات ومخمسات بل سباعيات أيضا، وهذا التنويع الموسيقي يشير إلى اختلاف الأذواق لاختلاف الأجناس والأعراق في الدولة الإسلامية الواسعة .

الهوامش

(1) السلطان سليمان بن السلطان سليم الأول حكم في 926هـ وفتح بلدانا كثيرة في ثلاث قارات وسبعة أبحر، واستشهد في المعركة: أفة، أحمد، سلاطين العثمانية، (قونية، تركيا نشر سامات يا ينلري ط 1966م) ص 22.

(2) أبو السعود أفندي شاعر وعالم إذ كان المفتي الأعظم في الدولة العثمانية: العصامي المكي، عبد الملك، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي 4 أجزاء، المطبعة السلفية، قطر ج4 ص 61.

(3) قيهور من قهر: غلاب: محمد بن مكرم جمال الدين بن منظور، لسان العرب، (بيروت، دار صادر، 1997) مادة قهر.

(4) زبرت: لسان العرب مادة زبر، والأبيات في سمط النجوم العوالي 4/ 92 , وفي: مقديش، محمود، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تح علي الزاوي ومحمد محفوظ، (بيروت، دار الغرب الإسلامي 1988) ج2 ص54.

(5) حسن بن الأعوج (ت1019هـ) شاعر من حماة وكان أميرا فيها: المحبي، محمد أمين بن فضل الله، نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة، تح محمد عبد الفتاح محمد الحلو، (القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي 1967م) ج 2، ص427.

(6) نفحة الريحانة 2/ 427.

(7) حسن بدري الحجازي شاعر وعالم زاهد له مؤلفات: الجبرتي، عبد الرحمن، عجائب الآثارفي التراجم والأخبار، (القاهرة: مكتبة الأسرة 2003م) ج1، ص140.

(8) الجبرتي، عجائب الآثار 1/ 150.

(9) سعيد بن محمد الخروصي الملقب بالعشري من شعراء القرن الثاني عشر الهجري: ينظر له في: خفاجي، محمد عبد المنعم، ديوان العشري، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة 1981م مقدمة الديوان.

(10) ديوان العشري/ 109.

(11) محمد التافلاني مفتي الأحناف في القدس وشاعر من القرن الثاني عشر للهجرة: المرادي، محمد خليل، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر (بغداد 1966) ج2، ص3.
(12) المرادي، سلك الدرر ج2، ص3.
(13) الأمير الصنعاني محمد بن إسماعيل، شاعر وفقيه من القرن الثاني عشر الهجري: مقدمة ديوان الأمير الصنعاني، تح علي السيد صبحي المدني، القاهرة: مطبعة المدني 1964م) ص64.
(14) الصنعاني، ديوانه ص 64.
(15) إبراهيم بن يوسف المهتار شاعر من الحجاز من القرن الحادي عشر الهجري: العصامي، سمط النجوم العوالي ج4 ص404.
(16) الهجري، مكتبة المدني، جدة، السعودية ط1404هـ/ 1984م الردادي، عائض بن بنية، الشعر الحجازي في القرن الحادي عشر الهجري ج1 ص 275 - 277.
(17) محمد تقي الدين بن محمد المطلبي شاعر حلبي من القرن الثالث عشر الهجري: الطباخ، إعلام النبلاء 3/ 322.
(18) جسر الشغور مدينة في غربي سوريا تتبع محافظة إدلب حاليا، وكانت في ذلك العهد من مناطق حلب.
(19) الطباخ، محمد راغب، إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، تح محمد كمال، (حلب: سوريا 1408هـ/ 1988م) ج3ص323.
(20) السلطان محمود الثاني بن السلطان عبد الحميد الأول ولد 1785م وتسلم الحكم 1809م قضى على الانكشارية وسار بالبلاد سيرة غربية: أفة، سلاطين العثمانية ص66.
(21) أحمد بن علي بن مشرف (1215-1273هـ) شاعر من نجد من أنصار الحركة الوهابية، الألوسي، علي بن نعمان، الدر المنتثر في رجال القرن الثاني عشر والثالث عشر، تح جمال الدين الألوسي وعبد الله الجبوري، دار الجمهورية، بغداد , ط 1976م ص 96.
(22) ابن مشرف، أحمد بن علي، ديوان الإمام أحمد بن علي بن مشرف، تح عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، دار إحياء التراث الإسلامي، قطر ص44-45.
(23) أمين بن علي ناصر الدين (1297-1373 هـ) شاعر لبناني له ديوان وكتب متعددة: كرد علي، محمد، المعاصرون، مجمع اللغة العربية بدمشق ط1980 ص59.
(24) ناصر الدين، أمين، ديوان صدى الخاطر، عبيه، لبنان مطبعة الصفاء، 1331هـ 1913م، ص 19 .
(25) السلطان عبد الجميد الثاني بن السلطان عبد المجيد (1842-1918م كان ذا دهاء، ولم ينهزم أمام الأعداء، عزل من السلطنة 1909 بتآمر: أفة، سلاطين العثمانية، ص 74.
(26) شوقي، أحمد، ديوان الشوقيات، 4أجزاء في مجلدين، (بيروت، نشر دار الكتاب العربي، س1986م) ط11ج1 ص 122.
(27) مصطفى كمال أتاتورك حارب اليونان وظهر بمظهر الوطني ثم أسقط الخلافة الإسلامية ووجه تركيا وجهة غربية: شاكر، محمود التاريخ الإسلامي، المكتب الإسلامي بيروت، دمشق 1991م، ج8 ص229 .
(28) شوقي، ديوان الشوقيات/ 106.
(29) مصطفى البابي الحلبي (ت1091هـ) شاعر من حلب كان قاضيا، وله مؤلفات، وتوفي بمكة حاجا: إعلام النبلاء 6/ 340، و: كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية، 15 جزءا (بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1975م) ص 186.
(30) المحبي، نفحة الريحانة 2/ 423.
(31) رجب الحريري (ت1091هـ) شاعر من حمص، المحبي، نفحة الريحانة 2/ 409.
(32) المحبي، نفحة الريحانة 2/ 413.
(33) أورد ابن المبرد في كتابه الكامل في اللغة والأدب رثاء السليك لفرسه النحام، ينظر في الكتاب ط دار الفكر، بيروت ط 1999، ج3 ص 53.
(34) أحمد بن حسين الكيواني (ت1173هـ) شاعر من دمشق وخطاط، وله ديوان شعر، الحافظ، محمد مطيع، وأباظة، نزار، علماء دمشق وأعيانها في القرن الثالث عشر الهجري، دار الفكر المعاصر، بيروت، ودار الفكر، دمشق، ط2000 ج3 ص 124.
(35) نفسه 3/ 135.
(36) شعبان الدنوشري شاعر وعالم مصري من القرن الحادي عشر الهجري، ينظر له في: محمد ابن أبي السرور الصديقي: المنح الرحمانية في الدولة العثمانية، تح ليلى الصباغ، ص364.

(37) الصديقي، المنح الرحمانية/ 365.
(38) العمدة 2/ 150.
(39) عبد الله الزيباري بن مصطفى شاعر من حلب توفي في أوائل القرن الثاني عشر: الطباخ: إعلام النبلاء ج6 ص432.
(40) الطباخ، إعلام النبلاء 6/ 432-433.
(41) ديوان العشري/ 409.
(42) شاعر من دمشق له مؤلفات تاريخية كثيرة: المرادي، سلك الدرر 2/ 310 عبد الرحمن بن محمد البهلول (ت بعد 1111هـ)
(43) المرادي، سلك الدرر 1/ 204.
(44) محمد الدكدكجي شاعر من القرن الثاني عشر الهجري: المرادي: سلك الدرر 4/ 26 و: الحافظ، محمد مطيع. وأباظة، نزار، علماء دمشق وأعيانها في القرن الثاني عشر الهجري (بيروت: دار الفكر المعاصر. دمشق: دار الفكر 2000م) ج1 ص384.
(45) المرادي سلك الدرر 1/ 20، والشعر ذكر في ترجمة الابن الموصى.
(46) ديوان العشري/ 344 .
(47) العمدة 2/ 154 .
(48) ديوان ابن مشرف/ 16 .
(49) حسين بن الجزري (ت 1032هـ) شاعر من حلب مدح ولاة الدولة العثمانية من آل جانبولاذ وآل سيفا، وكانا متعاديين وذلك طمعا بالنوال: المحبي، خلاصة الأثر 2/ 81، و: ابن معصوم، أحمد نظام الدين، سلافة العصر، ط القاهرة 1324هـ ص393 .
(50) الطباخ، محمد راغب، العقود الدرية في الدواوين الحلبية، المطبعة العلمية، حلب سوريا ط 1347هـ ص 48 .
(51) الطباخ، إعلام النبلاء/ 406.
(52) فخر الدين المعني الثاني بن قرقماس حاكم من دروز لبنان أعلن عداءه للدولة العثمانية واتفق مع كثيرين ممن ثاروا ضدها حتى مع الأوربيين من أهالي البندقية، قد قتل 1043 هـ، ينظر لترجمته في: الغزي، نجم الدين، لطف السمر وقطف الثمر في تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر الهجري، تح محمود الشيخ، جزءان، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد بدمشق، ط1981، ص107 .
(53) عبد الله كيوان حاكم دمشق وكان أحد كبار الجند قتل لثورته في 1033هـ: الحافظ، مطيع، وأباظة، نزار، علماء دمشق وأعيانها في القرن الحادي عشر الهجري، 3 أجزاء، دار الفكر المعاصر بيروت، ودار الفكر، دمشق ط2000م ج1 ص383.
(54) أبو بكر العمري شاعر من دمشق من القرن الحادي عشر الهجري: المحبي، محمد أمين بن فضل الله، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، 4 أجزاء، المطبعة الوهبية بمصر 1284هـ/ 1869م، ج1 ص99.
(55) الحافظ، علماء دمشق وأعيانها في القرن الحادي عشر ج1 ص 387.
(56) الحسن البوريني (963-1024هـ) فقيه وشاعر من دمشق، له مؤلفات: المحبي، خلاصة الأثر 2/ 5، وتراجم الأعيان من أبناء الزمان، للمترجم نفسه، تح صلاح الدين المنجد جزءان، دار الثقافة بدمشق , سوريا 1963 ط7ج1ص15.
(57) البوريني، تراجم الأعيان ص 135.
(58) سنن أبي داود من حديث عائشة بإسناد جيد.
(59) أحمد باشا الجزار (1135-1219هـ) كان حاكم عكا ووالي سوريا، ولد في البوسنة، ولقب بالجزار حينما عاقب العربان فقتل منهم سبعين، كان يكثر من القتل ليتسلم المناصب، وكان قاسيا مجبولا على الفسق والآثام، ادعى أنه أحمد المنتظر المذكور في الجفر: الحافظ وأباظة، علماء دمشق وأعيانها في القرن الثالث عشر الهجري ج1ص153.
(60) الحافظ: علماء دمشق وأعيانها في القرن الثالث عشر الهجري 1/ 156.
(61) نجم الدين بن عبد الرحمن الغزي شاعر من دمشق ت 1061هـ: الحافظ، علماء دمشق وأعيانها في القرن الحادي عشر الهجري، ج2 ص67.

(62) هو حسن باشا بن عبد الله الأمين الملقب بالشوربزي، كان محافظ دمشق وقتل طائفة المفسدين، وشدد في تحصيل الأموال السلطانية، وكان يقضي حوائج الناس. ت 1027هـ: الحافظ، علماء دمشق وأعيانها في القرن الحادي عشر 1/ 326.
(63) شآبيب: ج شؤبوب، وهو الدفقة من المطر، ويراد بها الخير الكثير: لسان العرب.
(64) يعاسيبه إبر النحل، والمفرد يعسوب: لسان العرب.
(65) الحافظ، علماء دمشق وأعيانها في القرن الحادي عشر الهجري ج1 ص326.
(66) نقولا الترك من شعراء لبنان في القرن الثالث عشر الهجري: الشهابي، حيدر، لبنان في عهد الأمراء الشهابيين، أو الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمان، 3 أجزاء، تح أسد رستم وفؤاد البستاني، منشورات المكتبة البوليسية، بيروت 1984م.
(67) عبد الله فريج شاعر مصري من القرن الثالث عشر الهجري: الوادي، طه، الشعر والشعراء المجهولون، نشر دار الثقافة، الدوحة، قطر، ط 1986م ص170 .
(68) الوادي، الشعر والشعراء المجهولون ص 170 .
(69) يذكر ذلك ابن رشيق في عمدته، ثم قال: إلا أن ابن دريد ذكر ذلك ولكن بعدما أخذ بثأر أخيه: القيرواني، الحسن بن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، لبنان ج2، ص 152 .
(70) خلاصة الأثر 3/ 450 ونفحة الريحانة 2/ 297 البهاء العاملي شاعر من لبنان هاجر إلى بلاد العجم مع والده.
(71) خلاصة الأثر 3/ 451، والأمين، محسن، أعيان الشيعة، تح حسن الأمين، (بيروت، دار التعارف للمطبوعات 1986م) 9/ 246 .
(72) العصامي: سمط النجوم 4/ 404 .
(73) البيطار، عبد الرزاق، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، تح محمد بهجة البيطار (بيروت: دار صادر 1993م) 2/ 911.
(74) من القرن الثاني عشر، المرادي: سلك الدرر 1/ 273 إبراهيم المفتي شاعر من محافظة إدلب "غربي سوريا."
(75) المرادي، سلك الدرر 1/ 273.
(76) مصطفى بن عبد الرحيم اللوجي، شاعر من القرن الثاني عشر للهجرة، المرادي، سلك الدرر 1/ 146 .
(77) المرادي، سلك الدرر 1/ 148 .
(78) ينظر ديوان العشري/ 110 في ختام مرثيته لأمه.
(79) كما في مرثية لأحمد بن النقيب في خلاصة الأثر 1/ 322.
(80) أحمد العطار (1138- 1218هـ) شاعر من دمشق: علماء دمشق وأعيانها في القرن الثالث عشر الهجري 1/ 115.
(81) نفسه 1/ 149.
(82) العمدة 2/ 124.
(83) فتح الله بن النحاس (ت1052هـ) شاعر من حلب له ديوان مطبوع باسم ديوان فتح الله بن النحاس، وتنظر حياته في مقدمته، وهو بتحقيق محمد العيد الخطراوي (المدينة المنورة، مكتبة دار التراث 1412هـ/ 1991م: والزركلي: الأعلام 5/ 135.
(84) الصديقي، المنح الرحمانية/ 360، والقصيدة حتى 363.
(85) التداعي الإيحائي هو استدعاء المعاني الإيحائية الموجودة في النص، فالكلمة تثير أختها، وهو من الحقول الدلالية: لوشن، نور الهدى، علم الدلالة دراسة وتطبيق، (بنغازي، ليبيا، منشورات جامعة قار يونس 1995م) ص 181.
(86) هو اصطلاح لتقويم الحروف الأبجدية وفق الأعداد الآتية: (أبجد: أ=1 ب=2 ج=3 د=4 - هوز: هـ=5 و=6 ز=7 حطي: ح= 8 ط=9 ي =10 - كلمن: ك =20 ل=30 م=40 ن=50 سعفص: س=60 ع = 70 ف=80 ص=90 - قرشت: ق=100 ر=200 ش=300 ت=400 - ثخذ: ث=500 خ=600 ذ=700 - ضظغ: ض = 800 ظ=900 غ=1000: من كتاب د. عمر موسى باشا: العصر العثماني، دار الفكر بدمشق ودار الفكر المعاصر بيروت ط1989م ص 78 .

(87) إبراهيم بن محمود العطار شاعر متصوف (ت 1314هـ): الحافظ، محمد مطيع، وأباظة، نزار، علماء دمشق وأعيانها في القرن الرابع عشر الهجري، مجلدان، دار الفكر المعاصر، بيروت، ودار الفكر، دمشق ط 1412هـ 1991م ج2 ص 543 .
(88) الحافظ،، علماء دمشق وأعيانها في القرن الثالث عشر، ج2 ص 543.
(89) عبد المحسن بن سالم القلعي شاعر من الحجاز من القرن الحادي عشر الهجري: سمط النجوم 4/ 475 .
(90) العصامي، سمط النجوم 4/ 475 .
(91) محمد بن عمر العرضي شاعر من حلب ت (1071هـ) كان من أسرة علم ودين: المحبي، خلاصة الأثر 4/ 89 .
(92) الطباخ، إعلام النبلاء 6/ 306.
(93) كامل الكيلاني الإدلبي شاعر من حلب من القرن الثالث عشر، الطباخ، إعلام النبلاء 520/7.
(94) إعلام النبلاء 7/ 520.
(95) أحمد بن النقيب (1003-1056هـ) شاعر حلبي كان نقيب الأشراف في حلب: العرضي، معادن الذهب/ 202، والخفاجي ريحانةالألبا 1/ 284.
(96) خلاصة الأثر 1/ 321 – 323، ونفحة الريحانة 2/ 539.
(97) عصفور، جابر أحمد، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، دار المعارف بمصر ط 1973 ص320.
(98) شاعر من دمشق من القرن الثالث عشر: علماء دمشق وأعيانها في القرن الثالث عشر الهجري ج2ص815.
(99) نفسه 2/ 815.
(100) صلاح الدين الكوراني (ت 1049هـ) شاعر من حلب كان رئيس الكتاب في محكمة قاضي القضاة في حلب: المحبي، خلاصة الأثر 2/ 252، والطباخ، إعلام النبلاء 2/ 254 .
(101) المحبي، خلاصة الأثر 2/ 254.
(102) محبي، خلاصة الأثر 2/ 255، والطباخ، إعلام النبلاء 6/ 256 .
(103) المرزوقي، شرح ديوان الحماسة تح أحمد أمين وعبد السلام هارون (لجنة التأليف والترجمة والطبع 1986م ط2ج3/ 70 وفيه قولها لشجر الخابور في رثاء أخيها:
أيا شجر الخابور مالك مورقا كأنك لم تجزع على ابن طريف
(104) معروف الرصافي (1875-1945م)، وقد عاش شطرا كبيرا من حياته في العصر العثماني، وكان قد شارك في الانقلاب الذي كان على السلطان عبد الحميد الثاني: كرد علي، محمد، المعاصرون/ 440 .
(105) محمود شوكت كان من رجال الاتحاد والترقي الذين أسقطوا حكم السلطان عبد الحميد الثاني: الزركلي، الأعلام 7/ 174.
(106) غرانقة: الشاب الجميل البيض.
(107) الرصافي، ديوان الرصافي، نشر مكتبة الحياة، بيروت، ط 1957م ص300.
(108) ناصر الدين، صدى الخاطر ص 43-44.
(109) إسماعيل، عز الدين، الأسس الجمالية في النقد العربي، عرض وتفسير، دار الفكر العربي 1974 ط3 ص277.
(110) قرطاجني، حازم، منهاج البلغاء، تحقيق محمد الحبيب بن خوجة، دار الغرب الإسلامي، 1983 ط 3، ص205، وطليمات، غازي، موسيقا الشعر، منشورات جامعة البعث، حمص، سوريا 1990 ص138.
(111) التفسير النفسي للأدب، دار العودة ودار الثقافة، القاهرة 1963.
(112) ديوان الإمام أحمد بن علي بن مشرف/ 44.
(113) خلاصة الأثر 3/ 451.
(114) أحمد بن إبراهيم الخياري شاعر من المدينة المنورة: خلاصة الأثر 1/ 232.
(115) التسبيغ هو زيادة حرف ساكن على السبب الخفيف في آخر التفعيلة فتصير متفاعلن: متفاعلان، وهذه العلة تلتزم في العروض والضرب، مناع، هاشم: الشافي في العروض والقوافي، دبي، الإمارات، دار القلم 1988 ص226 .
(116) خلاصة الأثر 1/ 232، ومثلها في سلك الدرر 1/ 71.
(117) علماء دمشق وأعيانها في القرن الحادي عشر 1/ 394.

(118) يوسف العلمي شاعر من دمشق من القرن الحادي عشر الهجري، ينظر: علماء دمشق وأعيانها في القرن الحادي عشر الهجري1/ 28.
(119) علماء دمشق وأعيانها في القرن الحادي عشر 1/ 29.
(120) محمد عياد شاعر من القرن الثالث عشر الهجري: إعلام النبلاء 7/ 241.
(121) إعلام النبلاء 7/ 241.
(122) وزارة الثقافة بدمشق ط 1994م ص 136 عزام، محمد، التحليل الألسني للأدب .
(123) ديوان الرصافي/ 485.
(124) مصطفى الأصيل شاعر من حلب من القرن الثالث عشر الهجري: إعلام النبلاء 7/ 280.
(125) إعلام النبلاء 7/ 280.
(126) التفويف هو نقرات موسيقية ذات تقطيع متساو هو أشبه بالترصيع: خلوصي، فن التقطيع الشعري والقافية منشورات مكتبة المثنى، بغداد 1977م ط5 ص 352.
(127) الرباعيات هي شهر يتألف من مقطوعات شعرية، وتتكون كل مقطوعة من أربعة أشطر، وتتعدد فيها قوافي المقطوعات، وتختلف أنواعها باختلاف قوافيها، ولكن الدوبيت يتألف من أربعة أشطر بوزن غير عربي، إذ يأتي غالبا على (فعلن متفاعلن فعولن فعلن): فن التقطيع الشعري والقافية ص 291 و294 .
(128) علماء دمشق وأعيانها في القرن الحادي عشر الهجري 1/ 514 .
(129) برويز ناتل خانلري، الأوزان الفارسية، ترجمة محمد نور الدين عبد المنعم، وعبد المنعم محمد حسنين، نشر مكتبة الأنجلو مصرية القاهرة ص 61 .
(130) إعلام النبلاء 3/ 322.
(131) ينظر: الفيروزآبادي، القاموس المحيط، دار الكتاب العربي ط 1306م: مادة طرب .
(132) محمد الحمزاوي شاعر من القرن الثالث عشر الهجري، الحافظ، علماء دمشق في القرن الثالث عشر الهجري 2/ 564.
(133) الحافظ، علماء دمشق واعيانها في القرن الثالث عشر الهجري 2/ 566.

المصادر والمراجع

(1) القرآن الكريم .
(2) د. ابتسام أحمد حمدان، الأسس الجمالية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي: دار القلم العربي حلب – سوريا 1997 م .
(3) أبو الوفاء العرضي، معادن الذهب في العيان المشرفة بهم حلب، تح محمد ألتونجي (حلب: دار القلم الملاح ط 1407هـ، 1987م . (
(4) أحمد أفة، سلاطين العثمانية، قونية، تركيا، دار النشر سانت يا ينلري ط 1996م.
(5) أحمد شوقي، ديوان الشوقيات: أحمد شوقي 4 أجزاء في مجلدين. نشر دار الكتاب العربي، بيروت ط11/ 1986 .
(6) أحمد بن علي بن مشرف، ديوان الإمام أحمد بن علي بن مشرف. تحقيق: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري دار إحياء التراث الإسلامي-قطر .
(7) أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي، ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا، تح عبد الفتاح محمد الحلو، جزءان، مطبعة عيسى البابي الحلبي 1967م.
(8) أحمد بن محمد المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، تح أحمد أمين وعبد السلام هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر 1986م .
(9) أحمد نظام الدين الحسيني بن معصوم سلافة العصر «وهو ذيل لنفحة الريحانة»: القاهرة، ط1324 .
(10) أمين ناصر الدين، صدى الخاطر، مطبعة الصفاء، عبيه، لبنان ط 1331هـ .
(11) د. بيرويز ناتل خانلري، أوزان الشعر الفارسي: ترجمة وتعليق د. محمد نور الدين عبد المنعم، ود. عبد المنعم محمد حسنين، نشر مكتبة الأنجلو المصرية -القاهرة ط1978 .
(12) جابر أحمد عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، دار المعارف بمصر ط 1973 .
(13) جمال الدين الألوسي، وعبد الله الجبوري، الدر المنتثر في رجال القرن الثاني عشر والثالث عشر، دار الجمهورية، بغداد ن ط1976م.
(14) جمال الدين محمد بن مكرم الملقب بابن منظور، لسان العرب:. دار صادر ط 1997.
(15) حازم قرطاجني منهاج البلغاء:. تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة. دار الغرب الإسلامي ط3 1986 .

(16) د. حسن كامل، بناء الصورة الفنية في البيان العربي موازنة وتطبيق مطبعة المجمع العلمي العراقي .
(17) الحسن بن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر ونقده، تح محيي الدين عبد الحميد (بيروت، دار الجيل . (
(18) الحسن بن محمد البوريني ت1024هـ تراجم الأعيان من أبناء الزمان:. تحقيق: د. صلاح المنجد، ط دمشق 1963 .
(19) الأمير حيدر أحمد الشهابي، لبنان في عهد الأمراء الشهابيين، أو الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمان: 3 أجزاء تحقيق أسد رستم، ود. فؤاد أفرام البستاني. منشورات المكتبة البولسية، بيروت – لبنان، ط2/ 1984 .
(20) خير الدين الزركلي. الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين: دار العلم للملايين ط7/ 1986م، بيروت .
(21) سعيد بن محمد الخروصي الملقب بالعشري، ديوان العشري: ت د. محمد عبد المنعم خفاجي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه 1981 .
(22) د. صفاء خلوصي، فن التقطيع الشعري والقافية: منشورات مكتبة المثنى بغداد، ط5-1977 .
(23) طه الوادي، الشعر والشعراء المجهولون، نشر دار الثقافة، الدوحة، قطر 1986م.
(24) عائض بن بنية الردادي الشعر الحجازي في القرن الحادي عشر الهجري:. جزءان. مكتبة المدني للطبع والنشر والتوزيع جدة – السعودية ط1404هـ-1984م .
(25) عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، (القاهرة، مكتبة الأسرة ط2003م . (
(26) عبد الرزاق البيطار، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر: تحقيق محمد بهجة البيطار، دار صادر بيروت 1993 .
(27) عبد الملك العصامي المكي سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي: 4 أجزاء المطبعة السلفية، قطر .
(28) عز الدين إسماعيل، الأسس الجمالية في النقد العربي عرض وتفسير: طبع ونشر دار الفكر العربي ط3/ 1974 .
(29) د. عز الدين إسماعيل، التفسير النفسي للأدب. العودة. دار الثقافة، القاهرة ط1963 .
(30) علي بن نعمان الألوسي، الدر المنتثر في رجال القرن الثاني عشر والثالث عشر، تح جمال الدين الألوسي وعبد الله الجبوري، دار الجمهورية بغداد 1976م.
(31) عمر رضا كحالة معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية: 15 جزءاً. ومستدركه من جزأين. دار إحياء التراث العربي – بيروت ط1957 .
(32) عمر موسى باشا، العصر العثماني، دار الفكر بدمشق ودار الفكر المعاصر ببيروت 1989م .
(33) غازي طليمات. موسيقا الشعر: منشورات جامعة البعث كلية الآداب، حمص – سوريا 1990م .
(34) فايز الداية، جماليات الأسلوب: الصورة الفنية في الأدب العربي:. دار الفكر المعاصر بيروت- لبنان. دار الفكر دمشق- سوريا ط2-1990م .
(35) فتح الله بن النحاس، ديوان فتح الله بن النحاس، تح محمد العيد الخطراوي، المدينة المنورة مكتبة التراث 1412هـ، 1991م.
(36) د. ماهر مهدي هلال، جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب، وزارة الثقافة والإعلام في الجمهورية العراقية، ط دار الحرية نشر دار الرشيد 1980 .
(37) محسن الأمين: أعيان الشيعة: تحقيق حسن الأمين 10 أجزاء، دار التعارف للمطبوعات بيروت 1986 .
(38) محمد أبو السرور البكري الصديقي، المنح الرحمانية في الدولة العثمانية، تح ليلى الصباغ.
(39) محمد أمين بن فضل الله المحبي خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر 4 أجزاء القاهرة، المطبعة الوهبية بمصر 1284هـ/ 1869م .
(40) المحبي نفسه: نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة، تح محمد عبد الفتاح محمد الحلو، جزءان (القاهرة مطبعة عيسى البابي الحلبي . (
(41) محمد خليل المرادي سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر: 4 أجزاء القاهرة 1306هـ تصوير بغداد 1966 .
(42) محمد راغب الطباخ. إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء: تحقيق: محمد كمال منشورات دار القلم العربي. حلب – سوريا ط2 1988 .
(43) محمد راغب الطباخ العقود الدرية في الدواوين الحلبية، المطبعة العلمية، حلب –سوريا-1347 هـ .

(44) محمد عزام، التحليل الألسني للأدب، وزارة الثقافة بدمشق، ط1994م.
(45) محمد كرد علي: المعاصرون مجمع اللغة العربية بدمشق 1980 .
(46) محمد مطيع الحافظ ود. نزار أباظة، علماء دمشق وأعيانها في القرن الثالث عشر الهجري، 3 أجزاء، (بيروت دار الفكر المعاصر، دمشق، دار الفكر ط2000م . (
(47) د. محمد مطيع الحافظ. د. نزار أباظة علماء دمشق وأعيانها في القرن الثاني عشر الهجري: -3 أجزاء- دار الفكر المعاصر بيروت. دار الفكر دمشق ط2000م .
(48) د. مطيع الحافظ ود. نزار أباظة علماء دمشق وأعيانها في القرن الحادي عشر الهجري. -3 أجزاء- دار الفكر المعاصر بيروت. دار الفكر دمشق 2000م .
(49) محمد مطيع الحافظ ونزار أباظة تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري:. 3 أجزاء دار الفكر دمشق ط1991 .
(50) محمد بن يزيد المبرد، الكامل في اللغة والأدب، مجلدان، دار الفكر العربي، ط1999م.
(51) محمود شاكر التاريخ الإسلامي: المكتب الإسلامي بيروت، دمشق، عمان ط1991 يوسف حسين بكار، بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء النقد الحديث، دار الأندلس، بيروت- لبنان ط2/ 1983 .
(52) محمود مقديش، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تح علي الزاوي ومحمد محفوظ، دار الغرب، بيروت، لبنان، 1988م.
(53) معروف الرصافي ديوان الرصافي المجموعة الكاملة نشر دار مكتبة الحياة بيروت – لبنان ط1957 .
(54) نجم الدين الغزي، لطف السمر وقطف الثمر في تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر:. تحقيق: محمود الشيخ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد. جزءان ط1981.
(55) نور الهدى لوشن، علم الدلالة دراسة وتطبيق، بنغازي ليبيا، منشورات جامعة قار يونس 1995م.
(56) د. هاشم مناع الشافي في العروض والقوافي. ط1/ 1988، دبي- الإمارات.